

ايليا حليم حنا

احمد زكي يحدثنا عن الحياة والناس

بقلم ايليا حليم حنا

***

فقد العالم العربي في الخامس عشر من اكتوبر ١٩٧٥ الاديب الفذ والعالم المفكر استاذنا الكبير الدكتور احمد زكي .. وفقيدنا غني عن كل تعريف فهو من خيرة رواد الحركة العلمية ومن القلائل الذين جمعوا بين العلم والادب .

راس تحرير مجلة «الهلال» في سنتي ١٩٤٩–١٩٥٠ وظل رئيسا لتحرير مجلة «العربي» الكويتية حتى رحل عن عالمنا ... وكان في شبابه مدرسا يزامل (العقاد) و (المازني) في مدرسة واحدة قبل ان يكون موظفا بالحكومة .. وقد تقلد العديد من المناصب فكان عميدا لكلية العلوم ثم مديرا عاما لمصلحة الكيمياء ومصلحة الصناعة ثم وكيل وزارة ثم وزيرا للشؤون الاجتماعية ثم مديرا لجامعة القاهرة ..

رحل الى الخارج مرات عديدة وزار معظم بلدان اوروبا وامريكا وزار بلدان الشرق الاوسط والباكستان والهند وحاضر في جامعاتها وله كثير من الابحاث العلمية التي تدور حول الكيمياء ونشرت في المجلات العلمية المتخصصة في اوروبا ...

وقد اشتهر بنشاطه المتعدد الاركان في المجامع العلمية واللغوية والادبية .. وله طائفة كبيرة من المؤلفات العلمية والادبية اخترت منها اليوم .. (مع الناس) ..

وقد يسأل القارىء لماذا اخترت هذا الكتاب من بين كتبه العديدة ! ذلك لان موضوعه حيوي ولانه يحتوي فلسفة فقيدنا في الحياة والناس وهو خير ما يقدم في هذا الوقت بعد رحيله لاننا في هذا الكتاب نعايش هذا الرجل العظيم في تجاربه وافكاره ونعيش مع اسلوبه القوي الرصين الذي امتاز به فلا تنفك صورة فقيدنا الكبير ماثلة امام ناظرينا وفي اذهاننا وهو يحدثنا عن الحياة والناس .. يحدثنا عن انفسنا .. وكيف نقضي على كثير من اسباب شقائنا ، وكيف يجب ان نعيش دنيانا مع الناس .

وقد حاولت في تلخيص الكتاب وعرضه ان اقدمه باسلوب صاحبه كما لو كان مقالا واحدا متصلا يكتبه هو . حافظت وانا انقل عنه ؛ على اسلوبه القوي الجزل الفخم ... وكل ما فعلته هو جمع زهور الكتاب اليانعة وومضاته الخاطفة في باقة متناسقة .

ويبدأ كاتبنا الكبير كتابه بالحديث عن الحياة فيقول : فن الحياة مكانه كل مكان وزمانه كل زمان ، وهو يقتبس ليل نهار ، يقتبس مما يرى الناس ، ومما يسمع الناس ، ومما يصيب الناس في يومهم من خير ومما يصيبهم في يومهم من شر . وانت تقتبسه غصبا ، ما دام ان لك عينا ترى واذنا تسمع ، وما دام ان لك رجلا تستقيم في الطريق او تتعثر ، وما دام ان لك جسما يتزن على رجليه او هو يميل فيسقط ، وما دام انك تشرك الناس في حظوظهم ، فتتذوق من حلو الحياة ومرها ..

وانا مثلك ، رايت من الناس ، وسمعت من الناس ، واقتبست مثلك من فن الحياة ، وقعدت ما جاءني الفراغ ؛ على مرقب عند مفترق بعض الطرق ، ارصد الناس ..

ما اكثر ما يشغل الناس بالحياة عن المتعة بالحياة ، وما اكثر ما يشغل الناس بوسائل العيش عن غايات العيش . وما اكثر ما يطلب الناس السعادة فيسلكون اليها سبيلا كلها شقاء . فالرجل الذي من اواسط الناس يجد خبز يومه وكساء سنته ومسكن دهره ، ومع هذا تجده شقيا بالحياة . ولو انك كشفت أمره واطلعت على سر همه ، عجبت لامر الناس كيف يرضون لانفسهم في الحياة اكتواء ، ولامزجتهم في الحياة تعكرا ، والحياة تجري عند اقدامهم بالماء العلب المتدفق ، يجري باردا ويجري صافيا ..

تظلم الحياة في انظار الناس وهي ما اظلمت ، ويخرج المهموم ثواني من ظلمة نفسه فيجد الدنيا لا تزال مضيئة والشمس لا تزال طالعة وطرق الحياة لا تزال ملأى بالناس رائحين غادين لا تخلو وجوههم من بشر او سن ضاحك . ان الظلام الذي يجده صاحب الهم انما هو ظلام في داخله ، ولا اثر له في الوجود حوله . هو ظلام

من صنعه .. وهو اذا قال اظلمت الارض واغبر وجه الدنيا فما عن ارضنا يتحدث ولكن عن دنيا خلقها . ان الارض والدنيا جماد يضيء للناظر او يظلم ، بما يلقي عليه صاحب العين من ضياء او ظلال . ان السعادة راحة البال ، وراحة البال مضمونة لصاحب العقل السليم ما ضمن لقمة العيش البسيطة سائغة ، وما ضمن اللباس الذي يستر والسقف الذي يقي .. ليس في امور الدنيا بين فجر الحياة ومغربها شيء يستحق ان يشغل الفكر في نهار هذه الحياة ـ وهو نهار قصير ـ عن المتعة بما في هذا الكون من جمال ، وعن عبادة الله بالفكر في كل هذه الاثار العجيبة من فوقنا ، ومن تحتنا وفينا ، التي هي من صنع الله رب هذا الكون الذي اليه ترجع الامور .

هذه الحياة لا تصفو كل الصفو الا .. لمجنون .. وهذا حكم خذوه على علاته من عاقل لم يعرف بعد ما الجنون .

ان الشمس لتكون طالعة ، ووجه الارض ضحوا مشرقا والطبيعة يبتسم زهرها ، ويغرد طيرها ، ويمشي المهموم بين كل هذا اعمى لا يرى ، اصم لا يسمع ، قد انطوى على نفسه وهي سواد في سواد ، ومن حوله حيوان الارض يرعى وهو غافل هانيء . فما الذي جعل لصاحبنا هذا ، صاحب الهم حظا غير حظ نبات الارض وحيوانها؟ انه العقل . انه العقل الذي يفيض مما به على الكون ، وقد يكون بياضا فيجعل منه سوادا او يكون سوادا فيجعل منه بياضا ... ويصور العقل للنفس صورا قد تاتلف مع حقيقة الانشاء قليلا وقد تاتلف كثيرا او لا تاتلف ابدا .. والعقل كالجسم ينشأ على ما تعود ، والعقول تربى بالعادة كما تربى الاجسام ويروض الجامح منها حتى يستطاب مركبا ويوثق به هاديا ..

وهموم الرجل قد تتصل بماضيه ، حدث مضى وانقضى يظل العقل يسترجعه اجترارا ، كما تسترجع الابقار ما بلعت من طعام ، ثم هو يلوكه ويلوكه ثم هو يبدؤه ثم يعيده .. فاذا ملأ به نهاره جاءه الليل فملأ به ليله واطار به نومه .. ثم هو يصحو ـ اذا نام ـ مريض النفس مريض الجسم مشتت الفؤاد .. وتسأل ما دواء هذا فيقولون اغلاق الباب على كل يوم من ايام الحياة مضى ... اذكر ان « لويد جورج » رئيس وزراء الانجليز الاشهر في الحرب العالمية الاولى ورائدهم الى النصر ، كان يلعب « الجلف » مع صديق له في الريف وجريا وراء الكرة من حقل الى حقل ، وخرجا من حقل ونسى صاحبه ان يغلق بابه .. فعاد السياسي الضخم ليغلق الباب . فلما اغلقه قال لصاحبه في اذنه « لقد تعودت ان اغلق من ورائي كل باب مرقت منه وفرغت » يشير الى ابواب الايام والسنين .

وكما تتصل هموم الرجل بماضيه تتصل كذلك بمستقبله ولا اقول بحاضره فليس في الدنيا حاضر : انما هي ساعة تستقبل او ساعة تستدبر .. ولو رددت هم الناس بمستقبلهم الى انفعالات الانسان الاولى لرددتها الى الخوف .. الخوف من المستقبل .. والخوف انفعال نفساني سليم جميل .. اننا نخاف فنحذر فنطلب السلامة .. وصاحب الهم يخاف ، وحق له ان يخاف ولكن ليس من حقه ان يجعل من خوفه ذعرا .. ومن اي شيء يذعر ؟ من شيء في الغيب غير منظور . وهو شيء مقدر ، وقد يخطيء التقدير . قرات لرحالة مضى يصف ما كان له ولاصحابه من مشقة . وكان في طريقهم نهر فاهتموا له واخذوا يختطون الخطط ليعبروه وهم لم ياتوه واعيتهم الحيلة بعد ان اجهدتهم ، فلما جاءوه وجدوا عليه ... جسرا . اني من تلك الساعة لا اكاد اخطط للمستقبل ابدا .. وقد يغيم الافق البعيد ويتجهم ، وتتجهم له النفس وتاخذ تشتغل بالمستقبل المنذر حتى يصبح اشتغالها ذعرا وهما ، فاقول لها : « يا نفس ، لا تجزعي حتى تاتيه فلعل على النهر جسرا » .

ومن الناس من يجيئه الهم فيكتم .. وشر الهم المكتوم . انك قد تلقم الهم العقل كما تلقم المعدة الحجر ، او كما تلقمها طعاما غير سائغ . فلا بد له من خروج . والهم يخرجه صاحبه فضفضة لصديق .. فاذا جاءك صاحب يشكو فاستمع لما يقول واصطبر على ما يقول . انه الجرح الخبيث يفيض بقيحه وصديده فصابره وعاونه على زيادة الفيض ، ولو لم يكن عندك ما تقول به وما تنصح .

ومن الناس من يجيئه الهم فيداريه ، وما تنفع مع الهم مداراة .. اجلس الى نفسك فادرس همك .. وان شئت فاجلس الى ورقة فخط فيها ما تجد منه ، صفه ، حلله ، تتبع اسبابه الى اصولها واطلب غاياته . وزنه وعده كما تزن وتعد الاشياء .. وانظر من اي جانب ياتيك السوء غدا ودبر له الدفاع عند اللقاء . وعندئذ سوف لا شك يخف عنك الهم الثقيل ويذهب الروع مما تخاف .. انه لا اثقل ولا اروع من الهم المبهم فازل عنه بالفكر ابهامه يزل عنك بالكشف روعه .

ان عندي نصيحة لمن اعياه الهم .. ان يخرج ساعة عن مدينة الاحياء الى مدينة الاموات . يحادث اهلها .. وانا ضامن له انه سوف يعود وقد دفن همه في حنية من حنايا تلك القبور .

وصحبة الناس امر لا حيلة لانسان فيه .. ولقد اذكر قولة قالها بعض فلاسفة الاغريق ، قبل ان يعرف الاغريق ما التوحيد ، قال : لا يستطيع ان يستغني عن صحبة الناس فينفرد بنفسه ويعيش وحده الا الوحوش والآلهة ... وليس ادل على حاجة الناس الى صحبة الناس ـ بصرف النظر عما يتبع ذلك من فوائد ـ من ضيق اغنياء عرفناهم ، ضيقهم بانفسهم ؛ على الثراء الواسع ، وفي القصر المنيف الكبير ، تحيطه الحدائق

والحقول المترامية. انها على الرغم من اشجارها وزهورها وعلى الرغم من زروعها واتصال الخضرة فيهـا تتراءى لصاحب القصر كالصحراء الصفراء الجرداء اذا خـلا القصر من سكانه او خلا صاحب القصر وخلا جانبه مـن قلب رفيق صديق .

ان الصاحب للصاحب مستودعه عند كل ما سر او ساء . ومن عجيب امر القلوب ان القلب يفضي لصاحبه بسروره لشيء فيتضاعف سروره. والقلب يفضي لصاحبه بحزنه فيتناقص حزنه . ذاك يتضاعف فيصير اثنين . وهذا ينقسم الى نصفين .. انها المواسـاة في السراء والضراء ، وقد لا تكلف احدا اكثر من ضحكة . وقـد لا تكلف احدا اكثر من دمعة ، ولكنها تكفي وتؤدي الغاية ايما اداء .

ومن غاية الصحبة شحذ العقـول ، ان في لقاء الاصدقاء معرضا للآراء. وراى الرجل منا كالثوب المطوي لا ينشره الا الكلام ، والثوب المطوي لا ينفع ولكن ينفـع المنشور ، عندئذ تتبين ابعاده وتتبين اطواله واعراضه ، وتتبين خطوطه ورسومه . والرجـل اذ ينشر الفكرة في الحديث انما ينسجها نسجا ، وعندئـذ يتبين له ما في خيوطها من عقد .. ان افكار العقل كخامات الارض لا بد لها من تصفية ومن تنقية ثم من صهر يذهب بخبثها . وكل هذا يحدث للفكرة يتلاقفها عقلان جلسـا على الصحبة يتحادثان .

وليست تغني قراءة عن كلام . ان الفكرة التي تقرا في كتاب قد تنقصها الخبرة وقد تنقصها الظلال والالوان ، وقد يكون قد فعل فيها وغير منها الزمان ، وبالقائها في مجال الحديث كما تلقى الكرة يتلقاها صولجان بعـد صولجان في يد صاحب بعد صاحب ، وكل ضربة تكشف عن صلاحها او فسادها باستقامتها او باعوجاجها .

وصحبة الناس تتقضى بها حاجات قلوب وحاجات عقول ، وللصحبة غاية اخرى يقتضيها التعاون على صحة السلوك في سبل هذه الحيـاة ، وهي النصيحة .. وكالنصيحة في الصحبة المعونة في الحياة . ولست احمل الجيل الحاضر ان تكون المعونة على الصحبة معونة مال ، ان في الحياة معونات كثيرة يبذلها الصاحب عن طيـب خاطر ، لا تكلف الا القليل . مصباح له يعطى لصاحبه من ضوئه فينير له به طرق الحياة دون ان يفقد المصبـاح شيئا ، وعلبة كبريت يحملها في جيبه ، يخرج منها العود من بعد العود ، يحكه ويشعله لصاحبه كلما سقط منه في ظلمة الارض شيء اخذ يبحث عنه والزمـان حالك . يقول المثل العربي القديم : الرفيق قبل الطريق ، وطريق الحياة اكبر طريق ، واوحش طريق ؛ فاطلب له الرفيق الصديق . وسوف تجده في ابن او اب او سوف تجده في اخت او اخ وان آثرتك الحظوظ مثلي فانت واجده في الزوجة وقد تحظى بالصحبة النادرة عند غريب بعـد ان طلبتها فعزت عند قريب ونسيب .

والمجاملة بين الناس شيء هام فالذي لا يجـامل يعيش بين الناس ولكن ليس منهم .. انك باداء فروض الحياة تكتسب عقول الناس ، ولكنك بالمحاسنة والملاطفة والمجاملة تكتسب قلوبهم . والناس انما تستخدم عقولها قليلا وتستخدم قلوبها كثيرا . والقلوب افعل في اجراء الحياة من العقول .. انـه ليس يحيي الجميل بـين الناس كرد الجميل والا فهو الانانية .. ومن اسبـاب المجاملة اصطناع المعروف وقضاء الحاجات .. الحيـاة اخفها ثقيل وايسرها عسير ، والحياة يخفف من ثقلهـا وييسر من عسرها ذكر الرجل المثقل المعسر .. والقلب الخير يعتبر فينتفع بان يمشي في موكب الحياة بما فيـه من اتراح وافراح .

لا سعادة لمن لا يعرف كيف يكتسب مـودة الناس وكيف يتجنب اثارة العداوة في صدورهم .. ان العداوة عند صاحبك تغذيها عداوة عندك فاذا انت رفضت ان تغذيها من مؤونتك ماتت جوعا ... ان العداوة غاليـة الثمن ، وليت صاحب العداوة يدفع ثمنها فضة او ذهبا، انه يدفعها اكتواء قلب واحتراق اعصاب .

والكلمة التي تفلت من الناس في غضبة من غضباتهم قد تدمر ما بينهم من صلة طيبة او حتى عابرة ، وكثيرا ما يقول قائلها « ليتني ما قلتها » وكثيرا ما يقول سامعها « يا ليتني ما سمعتها » .

.. ان الكلمة تبقى في لسان الرجل منا ، ولسان المراة فتكون ملكا لصاحبها او صاحبتها ، فاذا افلتـت ملكتهما جميعا . وقد تكون من الخطر بحيث تملـك مصائر الرجل لعام واعوام او لاعوامه جميعا . والكلمـة الضارة قد تفلت من المرء على الهدوء في غفلة ، وقد تفلت منه على الهدوء في نكتة نابية ، ولكنها اكثر ما تفلت والمرء في غضب .. ان الغضب عاطفة من العواطف .. والعواطف جوامح فلا بد من الجامها ، ولا يلجمها الا العقـل .. وحياة الانسان لا تهنأ ولا تسعد الا باتزان يقع بين عقلـه جميعا ، وعواطفه جميعا . ان الغضب حار ، والعقل بارد ، والغضب مجنون والعقل يحمي صاحبه من الجنون . ان الاساءة تعالج بالغضب فتزداد سوءا ، وهي تعالج بالحلم فيتثلم حدها ويخف شرها وقد ينقلب فيكون منه خـير كثير .

تجنبوا عثرات اللسان .. ليس في الثرثرة عيب في ذاتها .. ولا يعيبها الا ان تكون تقطيعا في فراء النـاس .. اذن فثرثروا ولا تخافـوا ولكن تجنبوا الاعـراض والاسرار .. ان في الثرثرة راحة اللسان ومتعة الخيال وركوب الفكر على الرهو وبغير لجام .. وفي الحياة ساعات من فراغ لا يملؤها الا الحديث الذي لا يجهد الفكر ، تروح به النفس وتطيب به الحياة .

والمرء حر بينه وبين نفسه .. ان انطلاق الفكر لا يكون كاملا الا بين الانسان وبين نفسه . وذلك لانه شيء خبيء لا تراه العيون . ولو ان العيسون رأته : ولو ان الانسان قام بينه وبين نفسه رقيب يطلع على ما يقول هو لنفسه وما تقول ، اذن لضاق الانسان بنفسه وضاق به الوجود .. والانسان لا يقول ما يفكر فيه لتفاهته ، او لسخافته او لسذاجته . او مما لا يقال .. فاذا هو خرج بالفكر الى حيث يكون الناس ، ضن بفكره بين الناس لانه لا يكون له من الحرية بعض ما كان له بينه وبين نفسه . ومن اجل هذا ضاق المرء بالرقباء وضاق بالطغاة الظالمين .

والفكر كالمطية يركبها المرء احيانا لغاية واحيانا لغير غاية . او هو يركبها للجد احيانا ، واللهو احيانا . أو هو يركبها مرة وحبلها مشدود ، ومرة حبلها على غاربها . مرة يمضي به الفكر الى حيث يريده ان يمضي، ومرة يمضي به الفكر على هوى الفكر مضيا . والضار في هذه الافكار ما تجتره اجترارا وتدور حوله وتدور دون ان تصل الى نتيجة حاسمة او تجد مخرجا من ضيق . والنوع الطيب من الفكر هو ما تحل به العقد وتنساق اليك فيه الفكرة النادرة ..

واخطر الافكار ما يحل المعضلة فيما بيننا وبين انفسنا ولكنه لا يحلها في الحال فيما بيننا وبين الناس وهذا هو اشبه شيء بالاحلام ... والذي اريده لك هو تفكير اليقظة على الوعي وعلى القصد وبلجام والى غاية تقوده ، وتقوده حيث تقوده لتجني من ذلك نفعا او لتحل معضلة وهي معضلة بينة الحدود ظاهرة . وهو فكر يحاول ان يجعل من المنطق الى غايته اداة . وليس كل الناس على هذا الفكر بقادر ؛ وليس كل قادر عليه بصائب ، ومن اجل هذا هم كثيرا ما يهربون منه الى فكر الخيال وفكر الاحلام . وهذا الفكر فكر العمد وفكر الوعي وفكر الحكم لا يصح في الافهام وحاصلها من مخزون العرفان ومخزون التجارب فارغ .

أن الرجل من يوم ولد ينظر ويلاحظ ويتفهم والى جانبه الذاكرة تحفظ ويتراكم على السنين عنده محصول كبير لو انه استفاد من زمنه واستفاد من دنياه . فمن حاصل هذا العرفان وحاصل هذه التجارب يستمد الفكر عندما يأخذ يعمل على عمد حاجته . ومن اجل تفاوت هذا المحصول تتفاوت الناس في العقول .

والرجل المثقف ، يقرأ ، يطلب في القراءة ثمرات العقول وارث بني الناس الذي خلفته الاجيال على القرون ، وهو يدخر كل هذا في عقله ، وهو يطويه في فطنته ، فاذا نظر الى الاشياء ، او حكم على الاشياء ، نظر وحكم بعين نفسه ؛ وبعيون الف ممن قرأ لهم في حاضر الزمان وغابره .

ان المثقف ، التام التثقيف ؛ الذي تثقف حسه ، وتثقف عقله ، وتثقف قلبه . وجمع الى العرفان الحكمة، هو اسعد رجل على هذه الارض ، وهو سعيد في شبعه وجوعه . سعيد في عريه واكتسائه . سعيد ما بقي له شعاع عقله ودفء قلبه وتفتح بصيرته .

وينتقل كاتبنا العظيم من الحديث عن « الحياة مع النفس » ثم « الحياة مع الغير » الى « روح الجماعة في الناس » فيقول : ان المجتمع افراد : والافراد لهم صوالح منفردين ، ولهم صوالح مجتمعين ، والاطلاق في صالح الفرد يضر الجماعة . والاطلاق في صالح الجماعة يضر بالفرد . واذن كان لا بد من موازنة ورسم حدود الفرد وحدود الجماعة . وهذا هو القانون .. فالذي لا يحترم القانون ، طوعا لا كرها ، يفقد روح الجماعة .. ولكن القانون لا يمكن ان يشمل كل شيء ؛ ولا يكفي حتى مع طاعته اذا لم يكن في الناس روح الجماعة . ان المبادىء الانسانية في حاجة قبل القانون وبعده الى عقل الانسان وايمانه وذوقه السليم وسلوكه المبني على العادات السليمة . وضرب امثلة بأمور لا يحكمها القانون وتكون منافية للذوق السليم والعادات الطيبة كتلك الامور التي لا يراعى فيها آداب الطريق ، قال : ان الطريق هو المكان الاوحد الذي تلتقي فه الامة من كل الطبقات فقيرها وغنيها ، عالمها وجاهلها ، شبانها والشيب ، وهو معرض لاخلاق الامة عظيم . وانت ان نزلت بقوم لا تعرفهم فامش في طرقاتهم تعرف عنهم ما لا تعلمك اياه الايام تقضيها في الفندق او الكتب تقرؤها الساعات مما يكتب الناس عن الناس .

وفي حديثه عن روح الجماعة يحدثنا عن حب الوطن، والزعامة ، والبطولة ، فيقول : حب الوطن ككل حب ، وككل عاطفة انما خلق ليكون غطاء لهدف من اهداف الحياة ، فحب الرجل المرأة هدفه اتصال النسل .. وحب الام ولدها هدفه حفظه والابقاء عليه حتى يشب ويقوى وحده على العيش . وحب المرء وطنه هدفه احاطته هو واهله بسياج يدفع عنهم اسباب الفناء ويسد دونهم مداخل الشرور ويكفل لهم الحرية والحياة الكريمة والمساواة . وحب الوطن ليس معناه ان اكره او اتعصب ضد أوطان الاخرين . فان من دعا « الحرية والاخاء والمساواة » وقصد بها ان تكون في اهلهم دون اهل الارض وغذى الاجيال بكل هذا ليكون القادم اقتل سما من الذاهب ، فهذه وطنية ضالة مضللة ، خرجت عن ان تكون حبا للوطن ، الى ان تكون طمعا وجشعا وأثرة وانانية وظلما كريها مهما زينوه وزوقوه . ان الحب عاطفة كريمة لا تأتلف مع الظلم ولا تأتلف مع الغدر وليس من ضروراتها كراهة الغير .

ويخطىء من يفهم من الزعامة : الزعامة السياسية وحدها فهناك في المجتمع الانساني صنوف من الزعامة

عدة : في النطاق الضيق البالغ الضيق وفي النطاق الواسع البالغ السعة . ففي اصغر وحـــدات المجتمع – في الاسرة – زعيم . وهو ليس دائما بالزوج . فللزعامـــة صفات قد لا تتوفر في الزوج وتتوفر في الزوجة ، وكثيرا ما تكون زعامتها خافية تملك عاطفة الرجل فتجعل منه عبدا : وقد يلتذ هو عبوديته وينعم فيهـا ، وقد تخفى عليه عبوديته بحسن سياسة الزوجة ، اذ تأخـذ منـه القلب وتترك له الوجه ؛ تأخذ الباطن وتدع الظـاهر ، تحفظ له اكبر ما تحفظ الكرامة ، فهو القائل وهو العامل ولكنها تلقي في روعه ما يعمل وما يقول ، فهي وحيه وهي ملكه او هي شيطانه .

ومن الزعامة زعامة الكاتب ، ومنها زعامة الشاعر ومنها زعامة الفيلسوف ومنها زعـامة الرجل الروحي الكبير الذي احقر ما عنده من المعاني معنى الزعـــامة فغاندي زعيم الهند الروحي ولو لم يزعم .

ومن الزعماء من تزعموا الناس في حيـاتهم ومنهم من تزعموا الناس بعد مماتهم . ومن الناس من عدهم اهل بدعة لا تجارى ، او اهل كفر تقطع فيه الرقاب ، فلقوا في حياتهم من اجل هذا عنتا ، وناضلوا من غـير جدوى ظاهرة فشقوا ... قلما ماتوا بعثوا من بعـد موت ، بعثوا افكارا حية ، وآراء صائبة ومبادىء عالية وفلسفة صادقة ، وخطوات عظمى من خطى التقـدم الانساني ظاهرة غير منكرة ، ونبت ذكرهم من بعد خمول في كل ارض ، واضاءت شموعهم تهدي الضـال في كل سبيل . قدر لهم ان تكون منهم في حياتهم شموس ، ولكن كسفها الناس ... هؤلاء الزعماء لا تراهم يسيرون في الناس في حياتهم على الارض .. ولكنك تراهم يسيرون في موكب التاريخ فوق رؤوس السنين والقرون ، وهـم من بعد شقاء الحيـــاة في كنف الله ناعمون راضـون خالدون .

والبطولة توجد بكل ارض ، وفي كل زمان وليست امة تستأثر بالبطولة دون امة ، ولا دين دون دين ولا لون دون لون . والبطولة هي خروج عن المألوف في كل صفة حميدة وان يجاوز المرء فيها الطوق الذي يحتمله الانسان .. وبطولة الارواح اعز من بطولة الاجسام واندر وهي امنع مطلبا وصاحبها بها اشقى ، واشقى كثيرا .. قرأت عن سقراط كيف قال ما قال ، وكره الاثينيون ما قال ، فاتهموه بفساد الرأي وبافساد النشء وبانـه لا يعبد الالهة التي يعبدون ، ودافع عن نفسه ودافع عن رأيه ، وقال لهم انه لو اطلق سراحه لعاد الى ما من اجله استاقوه وحبسوه وحكموا عليه بالموت . وهيأ لـه اصدقاؤه سبيل الهرب فأبى وشرب آخر الامر كأس السم التي قدر له ان يموت بها ، شربها بين جمع من تلاميذه احاطوا به بقلوب محطمة وأعين دامعة فما نكص او تلعثم وظل يقرع لهم الحجة بالحجة مبررا شرب الكأس حتى رفعها الى شفته وشربها في برود كمن يشرب شرابا سائغا ومات هادئا مستسلما .. فهذا بطل الفكر الحر والرأي الحر ، وهو بين الناس شيء عزيز . ان الانسانية ما كان لها ان تتقدم لولا الرأي الحر : لولا الرأي الحر والبطولة فيه . على ان البطولة من بادية وخافية لا تكسب من الناس شيئا ، ولو انها كسبت ما كذلك كانت . ان اكثر الابطال لا يدري انه البطل وهو يخرج عن الحياة وهو لا يدري ما الذي احدثه فيها .

وليس في طلب حسن السمعة وطيب الاحدوثة في الناس ما يعيب .. ولكن في الحياة مواقف اذا اشترى الرجل منا فيها حسن السمعة بين الناس اشتراه بثمن باهظ ، او دفع فيه من الاشياء الغوالي ما يجل عن ان يكون له ثمن .. وليس في طلب السمعة الحسنة مـا يعيب الا ان تصبح غاية لا وسيلة .. ان الفرد منا لـه قيمتان ، قيمته في ذاته وقيمته عند الناس ، وهما قلما يتفقان . والفرد منا قد يهتم بسعره الجاري عند الناس، ولكن يجب عليه وهو في سبيل ذلك الا ينسى قيمتـه الذاتية ، وسعره عند نفسه .. ان اهتمام المرء بقيمة نفسه عند الناس دون قيمته عند نفسه ، يؤدي به ، اذا هو غلا فيه ، الى سخافات لا حصر لها ، ويؤدي به الى طلب المظاهر الفخمة التي لا يملؤها الا الهواء ويؤدي به ايضا الى اضاعة نفسه بالغرور .

وينهي (أدبنا العالم) كتابه بالحديث عن الناس بين ماضيهم وحاضرهم ، فيقول : كلنا متوزعون مشتتون بين ماضينا وحاضرنا ، نذكر الماضي فنهفو اليه بقلوبنـا ونذكر الحاضر فيربطنا به منطقنا، ومنطق الحياة، ومنطق الاحداث الجارية .... وقد يستبد الماضي ببعض القوم فيعيشون فيه حين يصبحون ، وحين يمسون ، وحين يعملون اذا قرأوا قرأوا القديم ، واذا استفتوا استفتوا القديم ، واذا تفلسفوا فغلسفة القدماء ، واذا علموا فعلم القدماء ، واذا تأدبوا لم يجدوا لغير القدماء ادبا ...

ومن امثال هؤلاء قوم من ارباب اللغة يودون لو احيوا بيننا لغة زهير بن أبي سلمى والحـــارث بن حلزة وان يحيوها بتمامها ويعز عليهم غرائب الكلم ان يقضي عليها الزمن بالموت .. فهؤلاء يعيشون مع زهير والحارث على بعد ما بينهما من قرون وهم يؤمنون بان زمانا عاش فيه زهير والحارث لا بد عائد وعائدة بداوته وعائدة خيامه. واذا ربت على اكتافهم لتوقظهم من احلامهم لتقول لهم ان ما فات مات ، وليس الى ماضي الايام من سبيل ؛ ذكروك تذكير الابله الجاهل بان قيم الاشياء ثابتة لا تتغير بتغير الايام ، ولا تنقص بانطواء السنين ... وهي كلمة يضعونها في غير موضعها .

وكما في الادب واللغة كذلك في السياسة .. وفي المجتمع .. في علاقة الناس بالناس ، وعلاقة الاسر بالاسر

اخت الشمس

الى صاحبة الصوت البنفسجي هناء الصافي

يا حلوة الارز ، بل يا حلوة العرب … انا سكرنا بلا خمر ولا عنب
حامت على الكوثر الصافي جوانحنا … افدي بروحي دموع الكوثر العذب
من جنة الخلد هذا الصوت يغمرنا … بالشعر ، بالعطر ، بالانداء ، بالذهب
يموج في صلوات الحب دندنة … نشوى ، ودمدمة في هزة الغضب
آمنت بالسحر لما انساب في خلدي … هلا رفقت بهذا الخافق الوجب
يا ويح قلبي كم اغفى على برد … ثم استفاق على اذكى من اللهب
ماذا فعلت به ، ماذا فعلت به … فليس يخفق الا خفق مضطرب
استغفر الحسن ، لا قرت متاعبه … شر المصائب ان ينجو من التعب
لولا عيونك ما حررت اجنحتي … ورحت اسبح بين السحب والشهب
يا حلوة الارز طابت فيك قافيتي … ورق شدوي ، فهل يعنيك ما نسبي
الفن يجمعنا روحا وعاطفة … ما الفرق بين رحيق الفن والادب
ايان سرت تلقاني ببسمته … وجه طويت على اطيابه هدبي
اقول - والافق قد ماتت بشاشته - … ياشمس غيبي ، فاخت الشمس لم تغب
تراقص الليل اذ غنيت من فرح … وصفق الفجر من زهو ومن طرب
الفن روض نضير كله عجب … وانت اعجب ما في الروض من عجب

بوانس ايرس - الارجنتين

زكي قنصل

وعلاقة افراد الاسرة الواحدة فيما بينهم ... لقد تغير بالزمن من المجتمع بيئته المادية ، وتغيرت ظروفه الاقتصادية ، ودخلت اليه صنوف جديدة من المدنية ولا يعقل ان تبقى بعد ذلك قواعد المعاملات واحدة ولا الحقوق واحدة ولا الواجبات ، وان حقوقا كانت في الامس جوازا اصبحت بحكم التطور الحديث وجوبا .

والعادات لا يمكن ان تظل باقية ساكنة كما هي ، وكل ما وراءها وكل ما تحتها يتحرك . والعادات لم تكن ازلية ، فقد كانت قبلها عادات حرص الناس عليها زمانا ثم اقلعوا عنها بتولد الانسان وبتعاقب الاجيال .

في المحافظة على القديم بعض الوفاء ... ولست ابالي بالمحافظة على قديم لا يفوت على الحاضر نفعا . كرجل دعانا الى عشاء في جنح ليل وعاد بنا مائة سنة الى الوراء فاضاء لنا الشموع مكان الكهرباء ، وفي اضواء هذه الشموع وهي راقصة اكلنا القديم ايضا من صنوف الطعام ، وكان لعواطفنا من كل هذا اشباع وكان لنا في تلك الساعات امتاع اي امتاع . ولكن ما كان يصح في الافهام ان نبقى في ضياء هذه الشموع الى غير اجل .. كان لا بد من استيقاظ فاستيقظنا ، واجرينا الحياة كما يرضاها الحاضر ويقرها الواقع .

ان الذين يلمون الماضي قوم ظالمون وكذلك الذين يذمون الحاضر ، ان الزمان لا يذم . فشمس اليوم هي شمس الامس ، والارض هي الارض ، والسماء هي السماء والهواء هو الهواء ، عاش على ظهرها فراعنة او قياصرة ، وعاش خلفاء او ملوك ، وعاش ارستقراطيون او ديمقراطيون .... ولكنه الفكر الانساني يلقى عنتا شديدا من حاضره فلا داعي لزيادة عنته واثقال قيده باضافة قيود قوم عاشوا في الماضي ... لا لشيء سوى انها قيود عتيقة اكسبها القدم جمالا وجلالا .

ان الماضي يستطيع ان يعين الحاضر ناصحا ، ففي الاشياء جواهر اصيلة كالماس لا ياكل منها ولا يذهب بدفين نورها الزمان ، ولكن الماضي غير ذلك اذا هو فرض ارادته . انها اذن ارادة اموات تريد ان تتحكم في احياء . والحي اليوم ، بما مهد له لعلم ومهدت له المدنية ارجح عقلا واوسع افقا واقدر على فهم وقائع حاضره التي حجب التراب دونها اعين القدماء .

والى هنا تنتهي جولتنا في فكر ووجدان اديبنا العظيم ، استمعنا اليه وهو يعالج النفس الانسانية بمعناها الشامل في بساطة ويسر ، وهو يرسي قواعده للنظر الى الذات ثم للتعامل مع الناس تعاملا عقليا سليما يقوم على التعاون والتكيف وحسن الفهم .

القاهرة

ايليا حليم حنا



نظير زيتون

نظير زيتون ورسائله المطوية

بقلم فوزي عطوي

***

عندما قرأت في عدد آب ـ اغسطس ١٩٧٥ من «الاديب» قول صديقي العلامة السفير الاستاذ اكرم زعيتر في برقيته الى فقيد الادب والخلق الرفيع نظير زيتون : « اعرني بيانك ، وبوئني في الادب مكانك ، وخذ مناصب الدنيا كلها » ، شعرت ان الاستاذ اكرم زعيتر سبقني الى اثنتين:

اولاهما : تأكيد اولوية الادب على كل منصب دنيوي ، وثانيتهما : ايثاره بدافع من وفائه العظيم ، نشر ما انطوى من ادب نظير زيتون الذي كان فريدا فيما اصطنعه من اسلوب يذكرنا بانه كان يصدر ، فيما يكتب ، عن المنهل العذب الاصيل .

اما وقد اعتزل الاستاذ اكرم زعيتر عمل السفارة، فذلك حق من حقوقه بعد ان وفى اقساط الجهاد في سبيل قضايا العرب، وفي طليعتها قضية فلسطين، واما ان يعتزل الادب ، فتلك قضية فيها نظر ، لان قلم اكرم زعيتر هو احد انبل اقلامنا العربية المعاصرة، ولان علمه وادبه وسعة افقه الثقافي لمما يلزمنا بمطالبته بالمزيد من العطاء الفكري، لا سيما وقد اعفى نفسه من مشاغل السفارات ، واصبح في مستطاعه التفرغ لشؤون الادب وقضاياه . ومن هنا تأكيدنا مجددا . لا على اولوية الادب وحسب . وانما على استمرار تصعيد كاتبنا الكبير . قبل . واثناء . وبعد توليه مشاغل السفارات .

واما نشر ما انطوى من ادب نظير زيتون، رحمه الله، فمهمة لا اخالنا قادرين على التحلل من مسؤولياتها، لا سيما متى توفر في ايدينا ما يمكنه ، لو نشر ، القاء المزيد من الاضواء على جوانب خفية من عطاءات الرجل، وعلاقاته، وحرصه على الودات والصداقات التي حسبها رأسماله الوحيد ، في زمن كادت ان تصبح فيه رابعة المستحيلات.

وفي ذمتي رسائل مطوية ، لنظير زيتون ، كان قد وافاني بها ، في فترات زمنية متقطعة ، وبمناسبات ادبية وصحفية عزيزة ، ارى من حق القارىء العربي ان يشاركني متعة النظر فيها ، واستشفاف معاني الاخاء المقيم، والوان الادب الاصيل ، من خلال سطورها الماتعة الرائعة .

الرسالة الاولى :

اما اولى رسائل نظير زيتون الي ، فهي مؤرخة في ١٠ تشرين الاول ـ اكتوبر ١٩٦٢، وسبب كتابتها انني كنت قد وافيته بنسخة من كتاب « ادبنا وادباؤنا في المهاجر الاميركية » لصديقي الحبيب الشاعر المهجري الكبير الاستاذ جورج صيدح ، بتكليف من الاستاذ صيدح نفسه الذي يقيم في باريس ، اذ طلب مني ان انقل اثناء عودتي من زيارتي للقاهرة عام ١٩٦٢ بضع نسخ من كتابه المودع لدى صديقنا المشترك الامثل الاستاذ وديع فلسطين الى بيروت ، وان ابعث بها الى عدد من اخوانه ، وفيهم المرحوم نظير زيتون ، نزيل حمص آنذاك .

وطبيعي ان اخط على نسخة الكتاب عبارة اهداء نيابة عن المؤلف وان ارفقها برسالة اخوية اعبر فيها عن تقديري لادب نظير زيتون ومكانته الفكرية ومعرفتي القديمة به منذ ان كان صديقنا الكاتب الكبير الاستاذ جان كميد يفسح لنا في المجال على صفحات مجلته « الرسالة »، كما ارفقت بالرسالة ايضا نسخة من ديواني الاول «دم وقم» الذي كان قد صدر عام ١٩٦٠ بطبعة ثانية جديدة، فكتب الي الاستاذ نظير زيتون الرسالة التالية :

عزيزي الاستاذ فوزي ،

اهلا بالكتاب وما حواه ، وبالادب يفوح شذاه ، وبالخلق يتالق سناه ، وبالشعر يصوغ رؤاه .

وبعد ، فقد كان لرسالتك الكريمة وقعها الجميل في قلبي، فحفظت لك هذه اللفتة الاخوية التي دلتني على ما تحليت به من رفيع المزايا ، وسري السجايا ، وها اني امد لك يدي ، وقد بسطت عليها ودي ، وهو ود ليس

بالجديد ، وقد طالما جمع الادب بين القريب والبعيد ؛ وتعارف الارواح اقوى من تعارف النظرات والاشباح .

ولقد شكرت لك اجزل الشكر ما ارسلت به الي من هدية «صيدحية» زادت قيمتها بما طبعت عليها من يد بالفضل ندية فشكرا لك ولعميدنا صيدح الجليل، ولحبيبنا وديع فلسطين ذي الخلق النبيل ، والادب الاصيل .

اما ديوانك «دم وفم» الذي تكرمـت به علي ، فيؤسفني اشد الاسف ضياعه في البريد ، ولم يكن من شيمتي الا ان ارد التحية باحسن منها ، فكيف يجوز ان اتناساها واصرف النظر عنها ، وعلى كل حال اني اتعلل بديوانك الجديد (بغداد والثوار) وارجو ان يكون حظه في البريد خيرا من حظ اخيه (الفقيد ..)

اكرر لك تحياتي الاخوية مقرونة بالشكر ، والولاء النقي ، والاعجاب السخي . واذا كتبت للعزيزين صيدح وفلسطين فسلم وزد تسليما ،

واسلم يا رعاك الله لاخيك المحب .

الرسالة الثانية

وفي صيف ١٩٦٣ صدر ديواني الثالث «بغداد والثوار»، بعد الديوانين الاولين (دم وفم ١٩٥٨ — ١٩٦٠)، و(شموع المعبد ١٩٦٢) ، ولهذا الديوان قصة طريفة ، فقد جعلت عنوانه « دم الثوار » ، لكن الناشر ، ولاعتبارات تجارية ملائمة في تلك الايام جعل العنوان (بغداد والثوار) ، فكان لا بد من القبول بالامر الواقع لثقتي بان العبرة ليست للعنوان ، بل للمضمون ، وان يكن العنوان قد احدث الاثر العكسي لما كان يرمي اليه ناشرو الديوان .

ولقد اهديت الاستاذ نظير زيتون هذا الديوان الجديد ، فمهد للكتابة عنه برسالة مؤرخة في اول آب ١٩٦٣ قال فيها :

عزيزي الاستاذ فوزي ،
تحية عربية وفية ،

وبعد : فكدت اشعر انني ضعت في ذاكرتك ، كما تضيع الاشياء الصغيرة في القاموس المحيط ؛ ولكن عندما اطل على ديوانك « بغداد والثوار » ، ورسالتك الرقيقة، نفيت عن نفسي هذا الشعور : فشكرا لك .

ولقد طلبت الي ان اعبر عن رأيي بصراحة في ديوانك الجديد ، فنزلت على رغبتك ، وكتبت ما رايته حقا وواجبا ، ولم اشا ان اجامل فانني مرائيا ، او انقد مجافيا : كما درج معظم النقاد .

ان لك مكانة في نفسي ؛ وان لك مستقبلا باسما ، اذا شئت انت ، واهتديت الى طريقك الذي ينجلي ضبابه شيئا فشيئا ، فتسلكه آمنا مطمئنا ..

والمهم في الموضوع ان دراستي لديوانك كانت دراسة اخوية مشبعة بروح الحب والاخلاص . فانا اكبر منك سنا . اذ نوفت على الستين ، ومررت بتجارب كثيرة لم تمر بها انت ، وكانت تجاربي في الحياة والادب عميقة واسعة شاملة ، وكان علي ان اخلص لنفسي باخلاصي للاخرين .

فاذا كتبت ، كتبت عن رغبة ، وهوى يجتذبني الى الكتابة . اني اتلقى كل شهر عشرات المؤلفات ، فاتصفح واتصفح ، ولا يفتح علي بكتابة كلمة ؛ ثم اراني مستهدفا لسخط اصحاب الهدايا .

اني انوي نشر كلمتي في ديوانك ؛ ولكن لن ادفعها للنشر الا بعد سماع رأيك ، ولذلك تراني بانتظار جوابك.

اذا كتبت الى اخينا وعميدنا الاستاذ صيدح، فبلغه مشكورا تحياتي وشوقي ، ومثلها الى الرجل الكامل الذي جعله الله من طين الجنة وديع فلسطين ، واني لك دائما الصديق المحب ..

وقد اضاف الاستاذ نظير زيتون هامشا الى رسالته هذه على الشكل التالي : « حاشية لغوية : استعملت في رسالتي هذه لفظة « نوفت » ، والمعاجم لم توردها ، بل قالت «نيف» بالياء ، مع ان الثلاثي واوي العين : (ناف ينوف ، نوفا) . فلماذا قالوا : نيف ؟ هذا يدل على ان معاجمنا تحتاج الى عملية نفض » .

ولعل استاذنا العلامة محمد العدناني يفتينا في الامر، خدمة للغة والادب ، وهو المعجمي الموسوعي الضليع الذي ننهل من معينه ، كلما اشكل علينا وجه من وجوه القول .

كما انني لم اوافِ الاستاذ نظير زيتون ، رحمه الله، برايي في كلمته ، بل دفعتها الى المطبعة، وظهرت في الصفحة الادبية التي كنت يومذاك اشرف على تحريرها في جريدة «بيروت المساء» ووافيته بنسخة منها فور صدورها .

الرسالة الثالثة

وبقبل عيد الميلاد عام ١٩٦٤ : فيوافيني صديقي الاستاذ نظير زيتون ببطاقة معايدة تمثل منظرا طبيعيا جميلا لاحدى نواعير مدينة حمص . وعليها رسالة لطيفة يقول فيها :

الى الصديق الكريم الاستاذ فوزي عطوي ، رعاه الله وابقاه ، ومن غيثه سقاه فارواه ؛

بزغ الفجر فاضحكي يا ربى ويا وهاد ، واسكبي الطيب يا ازاهير ويا اوراد ، فحبذا العيد عيد الميلاد ، راس البشائر والاعياد . ورسول المحبة الى العباد . وشعلة الحب والرشاد : وينبوع الصفح والوداد .

اعاده الله عليك سنين طوالا متتالية ، واسبغ عليك حلل العز والعافية ، ورعاك بعينه الواقية . وحفظك

للمطالب السامية ؛ ولا زلت من العيش في هناءة ورغادة، ومن الحياة في سعة وسعادة . واسلم للادب والخلق نشيدا وقلادة .

الرسالة الرابعة

ثم ان الاستاذ نظير زيتون ، لما اقبل عيد الفطر المبارك عام ١٩٦٦ بعث الي برسالة مؤرخة في ٢٥–١–١٩٦٦ ،يضمنها تهنئة كريمة بالعيد ، وشكرا على مجلة «رسالة التربية» التي كنت رئيسا لتحريرها ، والتي طلبت من المسؤولين عن توزيعها موافاة فقيدنا الغالي بها في حمص ، بصورة دائمة ، وقد جاء في الرسالة المذكورة :

الى الاخ الكريم الشاعر الناثر الاستاذ فوزي عطوي رعاه الله بآلائه ، وافاض في قلبه من ضيائه ،

سلام كندى الفجر ، وعبير الزهر ، ولألاء البدر ، وبشاشة الربيع في بشائره الخضر ، وغلائله الزهر ،

وبعد ، فها هو عيد الفطر المبارك قد اهل هلاله ، وسطع نوره وجماله ، وفتن القلوب والعقول كماله وجلاله ، فلله الحمد والشكران، ولك بدل التحية تحيتان، وعوض التهنئة تهنئتان ، وفوق الدعاء دعاآن ، تنبع من الاصغرين: القلب واللسان ، ادامك الله في رغادة عيش وامان، ورعاك من آلائه بالمطارف الحسان ، واسبغ عليك من الصحة والقوة ما تقر به العينان ، وادامك ريحانا للاصدقاء والخلان ، والخلق الريان ، والادب التهدان .

اما بعد ، فلا ادل على ودك الصافي ، وشعورك الضافي ، من تكرمك علي بمجلة « رسالة التربية » ، وهي نسمة من نفحاتك ، وقبسة من نفثاتك ، وقطاف من ثمراتك ، ولقد كنت ابش لها ، وارحب بطلعتها ، واسرح الطرف في مغاني روضتها ، واستجلي معاني روعتها ، واستمتع بشدو بلبلها على دوحتها ، وانهل تارة من شرعتها؛ واجرع طورا من خمرتها، واتذوق من عسلتها، وانشق من عبير زهرتها ، واروح النفس بنضرتها ، وافيء هانئا الى واحتها ، وفي الصدر ندى نسمتها وبسمتها ، وفي الخاطر ومضة شعلتها وحبرتها .

واني اذ ازجي لك الشكر واحييك . احيي معك فرسان « الرسالة » ، ورفاق الزمالة ، وحسبكم في الادب تلك الاصالة ، وفي الخلق تلك النبالة ؛

ودمتم للادب العربي وردا ورحيقا ؛ وللفكر صبحا فتيقا .

* * *

ولعل من حق القارىء ان يكشف اشكالا لا بد وقع فيه، حين لاحظ ان الاستاذ نظير زيتون ارسل بتهنئاته الي بمناسبة عيد الميلاد المسيحي، وعيد الفطر الاسلامي، ولعلي . ان لم تخني الذاكرة ؛ اطلعته يومذاك على تقليد اخذت نفسي به . في لبنان ، تجسيدا وتاكيدا لمعاني الوحدة الوطنية ، اذ اهنىء اخواني المسيحيين بأعيادنا الاسلامية وهم يهنئونني بدورهم بأعيادهم المسيحية ، لان الاعياد الدينية ان لم تكن مناسبات للتقى والقربى من الله ، ايا كان الدين الذي ننتمي اليه ، فرغت من مضامينها ، وكبت دون بلوغ الاهداف التي سنت من اجلها .

الرسالة الخامسة

وفيما يلي ما كان كتبه الاستاذ نظير زيتون عن ديواني « بغداد والثوار » في رسالته بتاريخ اول آب ١٩٦٣ :

عزيزي الاستاذ فوزي ،

سرني اني رافقتك في ثورتك العاصفة المتأججة ، الهدارة المتلججة ، الموارة المتهزجة ، المزلزلة المتوهجة ، كما طاب لي ان ارافقك في انتفاضتك المتهللة المتأرجة ، المتسامية المتبلجة .

اجل ، صحبتك في ثورتك القاصفة التي صغتها شعرا واصليتها حمما وجمرا ، وتدفقت في وصفها سيلا وبحرا ، وطفت بها ريحانا وخمرا وغنيت فيها هزارا ، وخلقت نسرا ، واطلعتها لحنا وبدرا ، ورتلت اياتها حمرا ، وقارعت فيها مناضلا حرا ، يلبس للكفاح نارا وصخرا ، وجلدا وصبرا ، ويشفي في القلب ثأرا ، ويا له منوارا يتشمم الدماء عطرا ، ويرى الاشلاء وردا وزهرا ، ويلثم الجراح فجرا ، ويعانق المعركة مجدا ونصرا ، ويهب الروح للحرية قهرا ، وما ازهده قدرا ، لمن رام عزا وفخرا . .

وتطوفت معك في رياض الغناء ، ولظى الهيجاء ، فسمعت اهازيج المعركة الحمراء، وشهدت الوثبة الشماء، وصليت مثلك على الشهداء الابرار الاوفياء ، وتمسحت بما هدروا من دماء ، وكأنهم من بقايا الانبياء ، في الذود عن كلمة الحق الزهراء ؛ واشراع رايته البيضاء ، هدى للمبصرين والمتبصرين الالباء ، سقطو في حومة الوغى ، وفي الثغر بسمة امل ومضاء ، وايمان وضياء ؛ وفي الاذن صليل وضوضاء . وفي الكف عطاء وفداء ، وفي الحنجرة زارة ونداء وحداء ؛ فهنيئا ايتها الغبراء ، بمن حضنت من ابطال حرية واباء وعلاء . .

وبعد ، فان ديوان « بغداد والثوار » ، في مجموع قصائده وفكرتها وروحها ، لون من الوان الشعر الحماسي والاصح ضرب من ضروب ادب النضال العقائدي ؛ ولكنه يدور على محور القومية العربية التي شعارها «من الخليج الى المحيط » .

وكان هذا الطراز من ادب النضال العقائدي قد

تفشى في اوروبة . يوم قامت الثورة الشيوعية في روسيا، منذ اربعين سنة ونيف ، ومحورها شعوبي او اممي او دولي . ونداؤها « يا عمال العالم اتحدوا » ، ثم الثورة الفاشستية في ايطاليا ، ومحورها قومي روماني، وشعارها « ماري نوسترو » ، اي ان البحر المتوسط بشطانه ايطالي ، كما كان في عصر الرومان . فالثورة النازية في المانية ، ومحورها قومي متطرف ، وشعارها « الارية سيدة الشعوب » ، ثم انتشر هذا اللون من ادب النضال العقائدي السياسي بين بعض الشعوب الاخرى التي جنحت الى اليمين او اليسار ، متطرفة غير معتدلة .

ولا شك ان العوامل السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية هي التي حفزت المفكرين الذين يعالجون أزمات شعوبهم، الى وضع انظمة جديدة في تعاليم جديدة تقلب المفهومات الشائعة .

وكان لا بد لهذه الانظمة والتعاليم من الارتكاز على ادب نضال عقائدي ، يوجه الشعب وينهض به ، ويجرده من ثوب حاضره ، ويدفعه الى السير قدما في طريق الحياة بمفهوم جديد ، ونفسية جديدة ..

ولقد عرف العرب ، في ماضيهم البعيد ، الشعر الحماسي ، وكان قبليا ، ثم اتسع افقه ، فجاء عربيا ، اما الادب القومي ، فلم يعرفوه الا في القرن التاسع عشر، اي بعدما انتشرت القومية في الغرب ، يدل على هذا انك لا تعثر على لفظة « قومية » في معاجم اللغة، ولا تعثر عليها ايضا في منظوم العرب ومنثورهم ، ثم ان العرب ذكروا الوطن ، وتغزلوا به ، وحنوا اليه ، وناجوه في اسفارهم ، ولكنهم لم يذكروا الوطنية بمعناها الشائع، اليوم . فالقومية والوطنية اذن ، اصطلاحان جديدان نقلناهما عن الغرب بمصدرين مصنوعين ، وهذ يدل على مرونة العربية ، واستيعابها ، واتساع ابواب الاشتقاق فيها .

واذا كنت ، يا عزيزي فوزي ، معجبا بطاقتك الشعرية الفنية ، وبالروح العربية التي اوحت الى يراعتك فنضدت ما نضدت ، ورصعت ما رصعت ، وانطلقت صعدا في الجو الفسيح ، فاني اقف متحفظا بل مناقشا امام بعض الخواطر التي تناهى فيها التفريط . مثل قولك :

فلسوف تنتصر العروبة بالدما ،   بالنار ، بل بالثورة الهوجاء

ولقد دلتنا التجارب ، قديما وحديثا ، كما دلنا العقل والعلم ، ان الثورة الهوجاء لا بد ان تنتهي بنتيجة هوجاء تهدم ولا تبني، تفسد ولا تصلح، تسلب ولا تعطي، فهل من الحكمة والقومية ان ندعو الى الثورة الهوجاء ، وهي داء فوق داء ، وبلاء فوق بلاء ؟!

ومثل قولك في التنديد بالعقل :

جبن والف تراجع ان تهتدي   بالعقل ، في ساح النضال الثائر

فاذا لم نهتد بالعقل الذي هو قبس من النور الالهي . وميزة الانسان على سائر المخلوقات . فبماذا نهتدي ؟

انك ، يا عزيزي فوزي، استاذ جامعي . ولولا العقل مستنبط العلوم والمعارف، لما كانت الجامعة، ولا الاساتذة . ولماذا نبخس العقل حقه وقيمته التي لا تعدلها كل ثروات الارض ، ولولاه لما قامت ثورة ، وحرية ، وحضارة ، وعمران ، ولولاه لما استطاع الانسان ان يرتاد الفضاء بجسده ، لا بخياله ، ويشق استاره ، ويفضح اسراره ، ولولاه ، « لكان ادنى ضيغم ادنى الى شرف من الانسان »

ومثل قولك :

ما للحضارة من سبيل واضح   الا سبيل القتل والافناء

ولا ندري متى كان القتل والافناء سبيلا الى الحضارة؟ وما هو الفرق بين الوحشية الفتاكة السفاكة ، وهذه الحضارة التي وقودها جماجم البشر ، وزيتها دماؤهم ، ولهيبها ارواحهم المتأوهة المرتمضة ..

وهل استطاع ، يا ترى ، جنكيز خان ، وهولاكو ، وتيمورلنك ، وسواهم من الغزاة ، والسلاطين الحمر ، والسفاحين العالميين الذين نكلوا ، وهدموا ، واحرقوا ، وبالغوا ترويعا وتفظيعا ، هل استطاع هؤلاء السفاحون ان ينشئوا حضارة ، ام ان العكس هو الصواب ؟

ولكن الشاعر لا يلبث ان ينفض عنه غبار الزوبعة الصحراوية ، وتعود اليه سكينة القلب ، ويقظة العقل ، فيعارض ما قرره سابقا ويقول :

هل صار تشريد النساء حضارة   ام ان تقتيل الشيوخ وئام ؟

و « هل » ، هنا ، للاستفهام الانكاري ؟

ومثل قولك :

وامنحني النار الحقود لاعتدي   وابدد الاعداء تحت حذائي

فاذا تساهلنا وتسامحنا في تبديد الاعداء تحت الحذاء ، فكيف لنا ان نتساهل في النار الحقود للاعتداء، لا لدفع الاعتداء ..

ومثل قولك :

قل ما تشاء عني ، قويا ، ظالما   اني احب تأوه الضعفاء!

وفي هذا البيت التفاتة من التفاتات « نيتشه » ، ولفحة من سموم زوبعته النفسية .

ولا نخال شاعرنا، والقومية مرتبطة ارتباطا وثيقا بالانسانية ، يختار القسوة الوحشية العفوية على ابسط معاني الانسانية ، فيقول انه يحب تأوه الضعفاء اي ايلامهم، وتعذيبهم ، دونما ذنب ، سوى حبه لسماع انتحابهم وانينهم ونشيجهم .. لا ندري كيف نفسر هذه الظاهرة الغريبة ، اهي هبوة عصفت بالنفس ، ام كبوة عطلت الحس ، فامتنا ، على اتساع تخومها ورقعتها الجغرافية وتكاثر ملايينها ، لا تزال ضعيفة ، فهل يطيب له ان

بسمع تأوهاتها اي جلدها وترويعها ؟

معاذ الله الف مرة . أليس هو من المنافحين عن كرامتها وعزتها ؟ أليس هو المتغني بالخير والتسامي الخلقي . اذ يقول في الديوان نفسه :

الخير بعض عطائنا ، وفخارنا   اناء وان جار اللئام، كرام،
دين السماحة ، ديننا، وشعارنا   انا على صدر الزمان وسام !

أليس هو المفاخر بالسماحة والندى والجمال والاخوة ، اذ يقول ايضا :

لبناننا بلد السماحة والندى   بلد البراءة والجمال الساحر
بلد الاخوة ، لا يعيش محمد   فيه، اذا لم يلقحب الناصري
لبنان ، يا اغلى من القلب الذي   ما هام الا بالجمال الطاهر !!

ثم أليس هو المنادي ، والهاتف بالصفح ، ونبذالحقد والشماتة ، والداعي الى الالفة والوفاق والغفران ؛ اذ يقول :

جرح البطولة يستطاب   اذا على الصفح التام
ونحن اذا تحدانا حقود   تكون الغافرين الصالحينا
ما شيمتي حقد على متسلط   هزت مخازي عهده الاعماقا
كلا ، ولا من شيمتي رقص على   قبر«الزعيم»وبشرها قد لاقى
لا تمتحن من انتضوا سيف الاذى   والحقد ، الا الفة ووفاقا !

هذا هو الشاعر الذي نحتفي به مرحبين ، ونصفق له معجبين ، ونصغي اليه متهللين . انه شاعر الخير والصفح والاحسان ، شاعر السماحة والندى والحب الريان ، شاعر القلب الذي ما هام الا بالجمال الطاهر الجذلان ، وهي صفات متفرعة من مكارم الخلق العربي ، من صميم الانسانية .

اما الشاعر الاخر ، فخصم مناوىء لهذا الشاعر المتلالىء ، انها العداوة بين المحاسن والمساوىء ، ونحن نعذر الشاعر ، وكيف لا نعذره ، وقد ابدى عذره ، اذقال:

« هل من رأى فيكم جنون الشاعر ؟ »

انها غمرة اعاصير نفسية ، ولكنها عابرة ، حتى اذا هدأت ، وصفا الجو ، صفا القلب ، وسكنت الروح ، وتفجرا ينبوع خير ؛ وحب ، وجمال .

وهناك هفوات لغوية كنت احب للديوان المشرق الديباجة ان يتنزد عنها ، نذكر منها على سبيل المثال : « وحدقت عيناي تحدج قمة الجوزاء » ، والصواب : « تحدجان » .

ومنها : « ومضيت تبني للغد المئناف الخ .. » ، ولم يرد في كلام العرب « مئناف » ، وانما قالوا : «انوف» ووزن مفعال للصفة : سماعي ، كما علمنا النحاة ؛ وقضية السماعي والقياسي معقدة يعسر حلها ، وان كنا نميل الى الاخذ بالقياس في حالات معينة ..

ومنها : آمنت في قومية عربية الخ .. ؛ والصواب تعدية « آمنت » بالباء ، ولا يصح في هذا المقام ؛ وضع «في» مكان « الباء » . والشاعر لا يجهل هذا الامر . ولكن ، قاتل الله الوزن .

ومنها : « الغادرين بأمة قد انجبت قوما الخ .. » و « انجب » فعل لازم ؛ تقول : « انجب الرجل » ، اي « ولد له ولد نجيب » . وتقول ايضا : « انجب به ابواه » ، اي ولداه نجيبا .

وهذا خطا شاع وذاع وزلت به اقلام الشعراء والكتاب ، ولم يسلم من الوقوع في هذا الخطأ الا من عصم ربك او عصمته المعاجم .

قالوا : « انجبت بشري جبران ، والفريكة الريحاني ، وبسكنتا نعيمه ؛ وحمص نسيب عريضة .. » والصواب : « بجبران والريحاني وبنعيمه وبنسيب عريضة » .

ومنها : « هلا سمعت ؟ ومن سواك بسامع الخ ؟ »

ومثلها : « علي اكون على الزمان بشاكز الخ » . وزيادة الباء في «سامع» و «شاكز» لا وجه له على الاطلاق، وهي انما تستعمل بعد «كان» المنفية ، او «ليس» ، وفي «الحال» المنفي عامله ، على نحو : «فما رجعت بخائب» .

ولا شك ان شاعرنا اللوذعي الضليع ما كانت لتفوته هذه الاخطاء التي لا يسلم من الوقوع في امثالها كبار الشعراء والكتاب ، لولا السرعة والعجلة والدفع الى النشر ، قبل المراجعة والتنقيح .

واذا كنت قد اشرت الى هذه الهفوات اللغوية فلاني احتفيت بالديوان وناظم عقده ، ولاني لا اهادن في الحرص على سلامة اللغة ، وخصوصا في الشعر ، وان كنت غير متشدد ، وغير متصلب ، وغير ضيق الافق .

ثم ان شاعرنا ليس ناشئا يحتاج الى شيء من التشجيع والتسامح ، ولكنه راسخ القدم في فنه ؛ صلب العود في ضلاعة ومتانة ، وفي صفاء نفس ، ولطافة حس ، وبصارة حدس ، وكان من حقنا ، بعد هذا ، ان نطالبه بالافضل والاكمل .

وبعد ، فاننا نستزيد شاعرنا من شعر الحب والجمال والانسانية، وسائر ما يمت الى التسامي الفكري والروحي ، وقد شاقتنا منه ومضاته المتناثرة في منظوماته الثائرة ، نستزيده منها لانها هي معراجنا الى القوة والحياة والنور ، وهي نافذتنا المطلة على آفاق الحقيقة الازلية الكبرى التي ابدعت نواميس الحي والجماد ، وآيتها : لا يصح الا الاصح . ولا يبقى الا الاصلح ؛ اما ان نغير طبيعة الاشياء بمعارضة هذه النواميس وسوء تفهمها ، فهو خداع للنفس ، او هو ابطل الاباطيل والسلام عليك من المخلص .

الرسالة السادسة :

ويبدو ان قصة البريد قصة ازلية ابدية سرمدية . اذ كان وما يزال . رغم التطور التكنولوجي الالكتروني الحديث، يستخدم السلحفاة المحنطة لنقل الرسائل والكتب والطرود ، هذا اذا لم تنقلب السلحفاة المحنطة الى وحش يفترس الرسائل ويطويها في بطون « المروضين » الى الابد !!

وفي رسالته التالية، شكوى من ضياع اعداد «رسالة التربية» التي كنت رئيسا لتحريرها (وما زلت نظريا ، امام وزارة الاعلام اللبنانية ، مديرا مسؤولا ورئيسا لتحريرها ، رغم احتجابها المؤقت) . فقد كتب الاستاذ نظير زيتون رحمه الله ، بتاريخ ١٢-٥-١٩٦٦ يقول :

الى الاخ الحبيب الشاعر الناثر الاستاذ فوزي عطوي رعاه الله بآلائه ،

سلام متأرج وشوق متبلج ،

وبعد ، فقد طالعت في رسالتك الرقيقة من عذوبة النفس آيات معندلات ، ومن صفاء الود سطورا متألقات، ومن نبل الشمائل بسمات ونفحات ، ومن اصالة الادب خطوطا متساميات ، ومن ندى اليراعة ازاهير متضوعات ، فبما إوفاك في المودات ، وما اسعدني بما سكبت لي من خمور المكرمات .

واذا كنت قد انست برسالتك الكريمة ورحبت بها اجمل ترحاب ، وانزلتها من القلب في الرحاب ، وضمختها بالاطياب ، وعانقتها بعد طول الغياب ، عناق الاصحاب للاصحاب ، فقد ساءني انقطاع «الرسالة» عني منذ خمسة اشهر ، اي ان آخر عدد تسلمته هو الاول من السنة السابعة الصادر في كانون الاول الاخير ، وهكذا لم يتسن لي ، لسوء الحظ ، ان اطالع العدد الذي تكرمت ونشرت فيه رسالتي ، على ما اخبرتني في كتابك .

وبعد وصول رسالتك ، انتظرت اكثر من اسبوع على امل ان تصل المجلة ، ولكن على غير جدوى ، ولا ادري ، بعد هذا ، هل ضاع العدد في البريد ام سهت الادارة عن ارساله .

انني ابادلك شوقا بشوق ، وارجو ان تسنح لي الفرصة ، فنتقابل في بيروت التي يشتاقها قلبي وفكري، واحن الى سمائها وجوها الطليق : فقد اصابني في حمص ما يسمى داء الكسل والاسترخاء ، وهما شر اعدائي ، فانصرف الى المطالعة ، بعدما رايت القلم يحرن في يدي ، والكلمة تشمس على القرطاس : فلا بهجة ولا ايناس ، ولا امل يطيب الانفاس ،

احييك مصافحا ، واسلم للود بحرا ، وللادب عطرا، وللاصدقاء ذخرا .

الرسالة السابعة والاخيرة

ورغم محاولاتنا المتكررة ، لارسال ما ينقص الاستاذ نظير زيتون من اعداد « رسالة التربية » ، فقد بقي البريدان اللبناني والسوري امينين على العهد ، لاقتناعهما بان « خير الكلام ما قل ودل » ، وبان القطر يغني عن البحر ، وان النم يستعاض به عن اليم ، فكان يصل الى الاستاذ نظير زيتون عدد او عددان من اعداد السنة الكاملة، لذلك كتب الي رسالة مؤرخة في ٤ حزيران (يونيو) ١٩٦٦ ، وكانت هذه اخر رسالة اتلقاها منه رحمه الله :

عزيزي الشاعر المبدع الاستاذ فوزي عطوي ، رعاه الله ،

سلام على ادبك الرفيع ، وخلقك المنيع ،

وبعد ، فاغلب الظن ، بل كل الظن ، ان كتابي الذي ارسلته جوابا عن رسالتك الكريمة ضاع في البريد او سواه ، فلقد اخبرتك فيه ان عدد «الرسالة» المنشورة فيه تحيتي اليك والى اسرة «رسالة التربية»، لمناسبة العيد ، لم اتسلمه . ورسالتك في الرسالة الضائعة ان تتكرم بانفاذ العدد المذكور ، مع الشكر الجزيل ، ازجيه اليك .

ان العدد الوحيد الذي تسلمته ، بعد انقطاع «رسالة التربية» نحو اربعة اشهر ، هو الصادر في ايار ـ محرم ، اي السادس من السنة السابعة ، فلو ان كتابي الذي انفذته اليك بعنوان وزارة المالية وصل الى يدك ، لارسلت فورا ، دون تردد ، عدد الرسالة المطلوب ، وبما اني انتظرت طويلا على غير طائل ، فلذلك جئت الان مكررا طلبي وشكري مرسلا كتابي بالبريد المضمون ، خشية ان يضيع كما ضاع اخوه الطيب الذكر ..

اختم رسالتي بالتحية والدعاء بنجاحك ، ورعاك الله ريحانا للادب ، وسيفا للعرب ، واسلم لاخيك المحب، نظير زيتون .

* * *

وبعد ، فاذا كان شعور الواجب بالوفاء ، نحو ذكرى الراحل الكبير اديب العروبة المرحوم نظير زيتون ، قد حملني على نشر ما انطوى من رسائله الي ، فلعل المبرر الوحيد لانتظام هذه الرسائل على صفحات « الاديب » ، كونها لا تدخل في نطاق الخصوصيات وحسب . وانما تمتد الى النطاق الفكري الشامل ، بحيث يصبح من حق القارىء العربي ان يطلع كما اسلفنا على جوانب غير معروفة لديه ، عن ادب نظير زيتون وخلقه وفضله .

وان الشكر ليزجى مضاعفا الى صديقي السفير الاديب الاستاذ اكرم زعيتر الذي حملتني كلمته على نشر هذه الرسائل المطوية ، والى استاذنا الكبير البير اديب الذي كان شديد الحماسة لنشرها واطلاع القارىء عليها في بلاد العرب ، وفي ديار الاستشراق ،

وتحية الى روح نظير زيتون ، في رحاب الله .

فوزي عطوي

انتفاضة فينيق

« .. لكن المهم ان البير اديب بقي ، وبقي معه الاسم العاطر الذي تخرجنا عليه ..
« بقيت « الاديب » نموذجا يرمز الى حقيقة لبنان ، الذي يظل يعرف كيف يخنق الوحش ،
الذي تفجر ، يوما ، من اعماق انسانه ، لكي يولد الانسان ، فيه ، كما يحب للانسان
ان يولد من جديد »

جريدة النهار — فوزي عطوي

نسيم نصر

★

لبنان ماذا دهى دنياك فارتجفت … بعاصف من رياح الشر يذروها
اهاجر الفكر عن احضان مولده … ام ان لسن اللظى شبت لتمحوها
مهابط الوحي ، من الوى منابرها … وايكة الشعر هل ماتت اغانيها
ما للنواقيس لا تشدو كعادتها ، … وللمآذن قد بحت اعاليها
وطلة العيد قد باخت مراسمها … وبهجة العرس قد غابت تهانيها
وحرمة الجيرة المرعي جانبها ، … ماذا عراها فما لانت لراعيها
ولوحة الفن ، هل ناءت بزينتها … فامعن القبح في الابداع تشويها
فاوقد الخلق فيها فتنة نهمت … كالنار تاكل ، ان تشتد ، صاليها

* * *

يا لوثة العار مما حل في وطني … من العوادي التي طاشت مراميها
فجردت من سلاح الحرب افتكه … وارخصت من ضحايا الغدر غاليها
قتل وخطف وتدمير ترافقه … غرائب النهب في اخزى مخازيها
((مدينة الحسن)) في الشط الجميل غدت … ميدان حرب تدوي في مبانيها
حرب الخنادق قد هانت لتنجدها … حرب الفنادق تحمى في مغانيها
ما بين قنبلة تهوي مدمرة ، … وبين قنبلة قد صد مطفيها
تمسي المباني كاطلال مشوهة … او كالمغاور ثوب الحزن كاسيها
وتاكل النار اسواقا بها نهضت … ايدي البناة ووشى الذوق حاليها
اما الصواريخ رسل الموت طائرة … فهي المطيفة بالاقدار تؤتيها
كانما الناس انعام تملكها … مشيئة الفتك بالاعمار تنهيها
فاستقرم البغي في اقسى ضراوته … يبيح للقنص حتى ظل ضاريها
واستفحل الشر يغشى كل حاضرة … وكل دسكرة يجتاح ما فيها
فنسبة الدين امست جرم حاملها … وقرعة الموت جرت حتف لاقيها

وجيرة الحي لم تسلم بحرمتها ... ما بين حنا وحمزي، في تآخيها
فرحل الجار جارا كان بادله ... عهد الاخوة في اوفى تفانيها
وهدم المدفع المجنون مطلقه ... دور المحبة في انقى تصافيها
واشتدت الفتنة العمياء ثورتها ... فهان حاضرها من رعب آتيها
وعز وقف قتال راح يلهبه ... عصف المطامع بانت من مخابيها
فغاص لبنان في آتون كارثة ... اعجوبة العصر ان تمحو مآسيها

* * *

تركت بيروت في قصف يزلزلها ... وجئت « قلحات » ابقي وحدتي فيها
فلطفت بلدتي من هول ما حملت ... نفسي طويلا ، وآستني روابيها
وهيات لي هدوءا كنت انشده ... يجلو عن الصدر غصات يعانيها
لكنما حدة الاحداث ما برحت ... تذكي القتال وتمضي في ترديها
فطار مني صوابي بعد هداته ... وخامر الياس نفسي في تاسيها

* * *

عشرون شهرا ، ولبنان تمزقه ... آلات حرب اكف الحقد تحشوها
كانما توام الفردوس موطننا ... قد صار حقل اختبار فيه تبلوها
وكبر المحنة المأساة من فتحوا ... سوق السلاح جهارا ، بئس شاريها
فارض لبنان امست ملتقى محن ... منها الدخيل ، ومنها صنع اهليها

* * *

وجاء فصح اندى ، والهول منتشر ... ودمعة الياس حرى في مآقيها
فوفر العيد جوا من سماوته ... يعيد للنفس ايمانا يمنيها
فرحت انظر بالعين التي انفتحت ... على الحقيقة في اصفى ترائيها
انسان لبنان لم تعظم فواجعه ... ولم تعمق له البلوى مهاويها
لولا تماديه في ادمان غفلته ... عن الشوائب تؤذيه ويخفيها
وعن اصالة خلق كان يحفظها ... لينمو العيش رغدا في تراقيها
لكنه صراع الخطب ذو ثقة ... يطوي المصاعب مهما اشتد قاسيها
ويدفع الضيم ، اما ضاق ممسكه ... ويقحم الفتنة الهوجا ويثنيها
لا يسلم القدر الاعمى قيادته ... وانما هو بالايمان يبنيها
ويصلح الخطا الراسي بوطاته ... بحكمة الوحي تدعوه فياتيها
مدارج الامس تحكي من روائعه ... وعبرة الدهر لا ينفك يعطيها
هذي انتفاضة فينيق تراوده ... اسطورة البعث للتاريخ يرويها

نسيم نصر

افاق عزت من غيبوبته على صوت الشاويش الاجش يناديه :

ــ عزت عبد المقصود .. كلم حضرة الضابط ..

ادار عزت عينيه يتفرس وجوه من قضوا الليل معه في الحجز .. هز رأسه مكذبا ما تشهد عيناه .. وقف مذهولا والشاويش يجذبه من ذراعه قائلا في سخرية :

ــ تعال يا اخويا .. تقتل القتيل وتحول الفرح الى محزنة ..

تبعه عزت صامتا .. عادت اليه غيبوبته .. مرة اخرى جثم الكابوس على عقله .. مثل امام الضابط .. سأله الضابط قائلا :

ــ قلت بالامس انك قاتل ... قتلت من ؟

ثم اخرج مسدسا من درج مكتبه .. وضعه امام عيني عزت مردفا :

ــ مسدسك .. لقد اطلقت رصاصتين .. هل قتلت احدا ؟

هز عزت رأسه بالنفي .. ومقه الضابط مندهشا :

ــ غريبة .. انكر اقوالك بالامس .. لقد جئت ومعك هذا المسدس وقلت انك قاتل .. هل تنكر ؟

هز عزت رأسه ثانية وقال :

ــ انا .. لا اذكر .. لا اذكر .. من جاء بي هنا ؟ .. انني واولادي نعيش في القاهرة ..

تجعدت جبهته ، واحمرت اذناه .. تلفت حوله وفجأة اخذ يدق بقبضتيه فوق المكتب .. اطاح بالمسدس والاوراق التي سقطت جميعها على الارض .. صرخ بكل قوة ملكتها حنجرته :

ــ لماذا انا هنا ؟.. دعوني لزوجتي واولادي ..

ثم استدار على عقبيه نحو الباب .. صاح الضابط :

ــ اقبض عليه يا شاويش ..

ثم عقب وهو يشهد العنف الذي يتبادلانه قائلا :

ــ الم اقل بالامس انه مجنون .. لم يحدث منذ عملت هنا ان سلم قاتل نفسه .. لا شك انه مجنون .

حاول عزت الافلات من الشاويش بالتخلص من قبضته الحديدية .. ولم يفلح .. دفعه الشاويش الى داخل الحجز مرة اخرى .. لاذ عزت باحد اركانها .. جلس مقرفصا منكمشا يرقب بقية المساجين في خوف ورعب .. ترتعش اطرافه .. تصطدم ركبتاه ببعضهما .. تصطك اسنانه .. ينظر تحته بين لحظة واخرى متخيلا بحيرة كونها العرق الغزير الذي فرزه جسده ، والصق الملابس بجلده .. اراح مؤخرته فوق

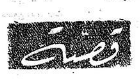


بقلم جمعه محمود جمعه

الارض .. اغمض عينيه .. مال برأسه الى الامام موسدا جبهته فوق ركبتيه ..

عاد عزت يشهد الكابوس مرة اخرى .. عاد الى الامس .. كان فرحا مسرورا .. دخل على رئيسه في العمل وقدم له اذنا بالانصراف قائلا :

ــ العقبى لانجالك يا حضرة الريس .. اليوم عقد قران ابن عمي ..



خرج مسرعا الى البيت يبغي السفر قبل ازدحام وسائل النقل .. فاليوم الخميس والزحام على اشده .. وفي البيت حدثت مشادة بينه وبين زوجته لاصرارها على السفر معه هي والاولاد .. واخذ الاولاد في البكاء .. وجد عزت نفسه موزعا بين رغبته في السفر وحده ، وبين تالم قلبه لبكاء اولاده .. خلع ملابسه وقال في غضب :

ــ لن اسافر ..

بعد هنيهة .. قام وارتدى ملابسه ثانية وقال :

ــ مستحيل الا احضر فرح ابن عمي ..

يرتفع صوت زوجته بالشجار مرة اخرى .. ويعلو في الشقة بكاء اولاده .. يخلع ما ارتدى من ملابسه مرة ثانية في ضيق وتبرم .. استمر على هذه الحال ما يزيد عن ثلاث ساعات بين شد وجذب .. قرر فجأة وفي اصرار ان يسافر .. فكم تمنى هذا اليوم ليجامل شعبان ابن عمه المجاملة اللائقة به .. فهو ــ ككل افراد العائلة الكبيرة المنتشرة في ربوع الوادي والدلتا ــ يحب شعبان .. ويتمنى ان يراه سعيدا على الدوام ، وسيكون شعبان في قمة سعادته في مساء هذا اليوم ولا بد ان يشاركه سعادته ..

تأهب عزت لمغادرة البيت والساعة تقترب من السادسة .. استوقفته زوجته قائلة في توسل الحاسة السادسة لزوجة محبة وفية :

ــ عزت .. ارجوك دع هذا المسدس هنا ..

قال مندهشا مبحلقا بعينيه الفرحتين :

ــ مستحيل .. اشتريته خصيصا لهذه المناسبة ..

قال ذلك وقلبه ينكمش ، ويخف وزنه .. شعر بنوع من التوجس والخوف .. دفعه ذلك الشعور الى معاودة تقبيل زوجته وطبع القبلات

على وجنات اولاده .. نظر اليهم طويلا يتبع نهمه الابوي المقدم على فراق طويل .. تراءى له مشوار السفر الذي لا يستغرق اكثر من ساعة كأنه سفر الى الابد .. دهمه شعور بالوحشة لبيته واولاده ولم يتحرك خطوة واحدة بعد .. كأنه لن يعود .. تغلب اخر الامر على هواجسه واستوقف دمعة قبل ان تطل من مقلته .. صافح زوجته مرة اخرى وغادر البيت ..

وصل عزت الى طنطا والساعة تقترب من السابعة والنصف مساء .. بدت على وجهه امارات الحزن وقد فاته عقد القران .. يعرف جيدا عادات وتقاليد اهل بلدته .. وغالبا ما يتم عقد القران في الخامسة او السادسة على الاكثر .. تحسس المسدس في جيب صديريته وهمس لنفسه في حسرة : « يا خسارة العشرين جنيه » ..

استقل سيارة اخرى لتوصيله الى البلدة .. استمع بانتباه الى السائق وهو يصف مهرجان الفرح المقام بها ، يسهب السائق في وصف الاستعدادات الضخمة .. وانتهى متهكما :

— كان العريس ابن باشا ..

قال عزت متسائلا :

— الا تعرف هل تم عقد القران ام لا ؟ .

تبلدت سحنة السائق لحظة اثر تبكمه اللاذع وسؤال عزت المباغت قال متلجلجا :

— لا اعرف شيئا .. سمعت ما قاله بعض الركاب .. لا اعرف شيئا ..

لمح عزت والسيارة تقترب من مشارف البلدة شعبان يحيط به جمع غفير من اهله واصدقائه وزملائه .. غادر السيارة مندفعا ونسي ان ينقد السائق اجره .. اندفع نحو شعبان واخذه بين ذراعيه يقبله مهللا :

— الف مبروك يابن عمي .. فرحت لك وفرحتي لا تقدر ..

عرف عزت ان شعبان في طريقه الى طنطا لاحضار ليلى من محل مصفف الشعر .. ازدادت فرحته لانه سيحضر عقد القران .. ويجامل ابن عمه كما تمنى وخطط .. تحسس جيب صديريته قائلا لشعبان :

— اشتريتها خصيصا لتحيتك في ليلة فرحك .. ستزغرد الطلقات نيابة عني ..

ذهب شعبان الى طنطا ، وانضم عزت الى اهل القرية التي وقفت على قدم وساق لتنتظر اوبة شعبان وعروسه .. التقى عزت بعمه وزوجة عمه واولاد عمه .. وكل اقاربه يهنئهم ويهنئونه ويتمنون جميعا السعي لمشاركته الافراح والمسرات في زواج اولاده .. اخرج مسدسه وتأكد من صلاحيته للعمل .. استعد ليكون اول من يفتح باب السيارة لابن عمه وعروسه ، واول من يطلق الرصاص تحية لهما .. دخلت السيارة تشق طريقها بصعوبة وسط الحشد الهائل من اهل البلدة والضيوف .. البعض تعلق بجوانبها ، والبعض الاخر جلس على مقدمتها ، والبعض الاخر اعتلى مؤخرتها .. وكان فوق المؤخرة احمد الذي صاح لمرأى عزت :

— حمد الله على السلامة يا عزت .. متى جئت ؟ .

رد عزت وهو ينزل شابا تعلق بجوار باب السيارة وبأخذ مكانه :

— جئت منذ قليل ..

وقفت السيارة .. فتح عزت بابها شاهرا فوهة مسدسه نحو السماء .. اطلق رصاصته الاولى التي ضاعت في خضم الطلقات التي شوهت وجه السماء بالنقط السوداء .. ولم تخرج رصاصته الثانية .. هز المسدس لاخراجها .. انطلقت واستقرت في دماغ احمد الذي سقط مضرجا في دمائه .. اضطرب عزت .. غامت عيناه .. لف الدوار راسه .. سقط مغشيا عليه ويده قابضة على المسدس .

افاق عزت وتمنى الا يفيق ابدا .. ما بين ثانية وثانية تحول من مجامل الى قاتل .. راى اللوحة القاتمة السوداء فهب واقفا .. اندفع كالمجنون .. استوقف سيارة على الطريق مهددا سائقها بالمسدس في يده .. امره بالذهاب الى قسم الشرطة في طنطا .. دخل الى القسم مندفعا .. وقف امام الضابط يصيح :

— انا القاتل .. هذا المسدس اداة الجريمة .. اسجنوني .. اقتلوني ..

سأله الضابط مندهشا :

— قتلت من ؟ .

لم يجب عزت .. تهالك جالسا ينشج بالبكاء .. دفع به الضابط الى الحجز وامضى الليل جالسا في انتظار الابلاغ عن الحادث ..

رفع عزت راسه .. تطلع نحو المساجين وهم يقهقهون في صوت جماعي مجلجل .. قال احدهم :

— ماذا بك يا اخينا ؟ .. سمعنا انك حولت ليلة فرح الى مأتم ..

قال آخر معلقا :

— الظاهر انه ثار قديم ..

تراءت لعزت اللقطة التي احكمت الاقدار خيوطها .. انتابته نوبة صياح وهياج عنيف .. قام واندفع نحو باب الحجز .. اخذ يدق بقبضتيه صارخا :

— اخرجوني .. دعوني لاولادي وزوجتي .. اخرجوني ..

وظل على هذا الحال حتى خارت قواه .. وبح صوته .. وسقط مغشيا عليه ..

القاهرة — جمعه محمد جمعه

الدكتور ناجي معروف في كتبه

بقلم عجاج نويهض

***

الفطرة اولا وقبل كل شيء . الاستعداد بالفطرة هو راس المال الاول. وغالبا ما نرى هذا واضحا في القاء نظرة على افق التفوق في علمائنا في الغابر والحاضر . وكما قال الحديث الشريف : « كل امرىء ميسر لما خلق له » اقول هذا وانا في صدد النظر في كتب العلامة الدكتور ناجي معروف استاذ التاريخ الاسلامي في كلية بغداد، واحد العلماء في الامة العربية الموفوري الالهام ، والبالغين في مؤلفاتهم من الغايات ما نقف عنده اكبارا واجلالا .

الدكتور ناجي معروف قد استجاب لنداء فطرته على ما إعتقد ، ونهج المنهج الصريح وغرس رياحينه في مروج عديدة ، فاتسمت كتبه وابحاثه بسمتين بارزتين:
١ ــ طرافة الموضوع ايا كان ، ولكن موضوعاته ليست من جانب الطريق بل مختارة تعلق بها عزمه و ٢ ــ الطريقة التي يسير عليها ، علمية ، فيستريح المطالع الى قافلته وهي تسير ويسمع حداءها . وهذا ما قصدت « بالفطرة » في الانسان ان يستجيب لفطرته في اختيار العلوم التي هيأه الله لها .

الدكتور ناجي معروف تنقسم محاصيله الى كتب تامة في جزء وجزءين كل واحد منها ، والى ابحاث في كبرى المجلات العربية ، ومعظم هذه في بغداد التي اخذ الله بيدها امست قاصدة « دار المأمون » . والابحاث هذه ، قيمتها من حيث الرصانة والجلالة لا تختلف عن كتبه الا من حيث الكم لا النوع . وعندي اطلاع لا ريب فيه ان مجموع هذا الانتاج كتبا وبحثا ، بلغ السابعة والثمانين رسالة وسفرا ، وآسف اذ ليس بالوسع ان اتناول الان سوى كتابين ولكن من عيون كتبه . وليتذكر القارىء الكريم اني قلت ان عند الدكتور ناجي معروف الطرافة والصفة العلمية المشرقة .

كتاب « عروبة العلماء المنسوبين الى البلدان الاعجمية في الشرق الاسلامي » . هذه الناحية ليس في بالي ان رأيتها قد بحثها العلماء الى الان على الوجه الذي اختاره الدكتور ناجي معروف . والحامل على هذا ليس ذهابا مع نازع قومي للاستعلاء ، ولا تغليبا لعاطفة على اخرى ، فالثقافة الاسلامية هي الوعاء الاكبر قائمة على المادة العربية . وكثيرون من الكتاب من مشارقة واهل الغرب الاوربي الاميركي ، يطيب لهم حينا واحيانا ان يقللوا من شان « العروبية » في الحضارة العربية الاسلامية التي كانت منفذا لاوروبا في القرون الوسطى عن طريق الاندلس . المصباح المنير . وقد تسرب الانطباع الى ذهن المستشرق . وهو يدرس منجزات علماء هذه الحضارة . ان ارهاط العلماء المنسوبين الى بلدان اعجمية هم اعاجم ويبنى على هذا احكاما غير صحيحة ، حتى لو فرضنا ان هذا المستشرق او ذاك ؛ من دابه ان يتحرى الحقيقة والعدل والانصاف . ومن هنا لنا ان نعلم العلم كله ان الدكتور ناجي معروف ، جزاه الله خيرا ، قد اتى بابا علميا طريفا ، لم يسبقه اليه احد من قبل .

وليس لنا ان نغفل ونحن في صدد موضوع دقيق، عن ناحية هي من لب اللباب وهي : الجهد المضني الذي عاناه الدكتور ناجي معروف في جمع الخيوط من مئات المصادر والمراجع .

واحب ان اضع بين يدي القارىء نقطتين ، الاولى: ان الدكتور معروف اول ما عني به في كتابه هذا ، هو تفنيده لنظرية ابن خلدون من ان اكثر العلماء في الاسلام من العجم . وشغل هذا التفنيد ١٧ صفحة من صدر الكتاب ، وتقرأ هذه الصفحات بشغف زائد، وهي مترفة بالطرافة العلمية . ولا باس ان انقل الى الافاضل قراء « الاديب » الفقرة الاولى من كلام الدكتور ناجي معروف :

« لقد زعم العلامة ابن خلدون ان حملة العلم في الملة الاسلامية اكثرهم العجم ، وعقد في « المقدمة » الشهيرة فصلا خاصا شرح فيه تلك النظرية ، وجاء بعده « حاجي خليفة » المتوفي سنة ١٠٦٧ هجرية فنقل نظرية ابن خلدون بحذافيرها واودعها كتابه « كشف الظنون » دون ان ينسبها الى ابن خلدون . وجاراهما في ذلك بعد قرون جرجي زيدان ، واحمد امين ، وفيليب حتي ، ومستشرقون دون ان يبينوا آراءهم على احصائيات للعلماء العرب في البلدان الاسلامية ، ودون ان ياخذوا بنظر الاعتبار عروبة الكثير ممن ينتسب الى المواطن الاعجمية ، بل عدوا كل من انتسب الى مدينة اعجمية اعجميا » .

بعد هذا، نرى السؤال الذي ينطرح امامنا بطبيعة الحال هو : هدف الكتاب . وكيف استوفى المؤلف واستقى انباءه المقنعة حول عروبة هؤلاء العلماء الذين ذكرهم في كتابه واحدا واحدا وهم بجملتهم ثلاث مئة واربعة علماء ، ابتداء بصهيب الرومي ، وهو من بني النمر بن قاسط ت ٣٨ هـ (٦٥٨م) الى ابي ذر الهروي ت ٤٣٢ هـ (١٠٤٢م) وهو من نسب الانصار اما صهيب فهو ابن سنان بن مالك ابي يحيى وقيل ابو غسان . صحابي جليل يظن كثير من الباحثين انه رومي . وقاسط من ربيعة كما نص على ذلك ابن سعد في طبقاته وابن حجر العسقلاني وغيرهما . واما ابو ذر الهروي ، ويقال

له ابن السماك . ويبدو كان معروفا في حياته واصله من هراة (افغانستان اليوم . وكان عالما بالحديث وكان من الحفاظ ومن فقهاء المالكية . وله من الكتب « تفسير القرآن » و « المستدرك على الصحيحين » و « السنة والصفات » .

وهذا ما نورده نموذجا . ثم جرى المؤلف ، ومهما عظم شكرنا له فهو قليل ، على هذه الطريقة في الكشف عن هؤلاء العلماء : يذكر العالم في راس الصفحة واسم القبيلة التي هو منها وذكر وفاته على الغالب ثم يبين نسبه الماخوذ من المراجع التي يرتقي تاريخها الى حوالي منتصف القرن الخامس ، هذا مع التعليق الذي يقتضيه الحال . ثم يسرد في نهاية كل ترجمة ، المصادر التي استقى منها . وفي استخراج هذه الحقائق من مراجعها على هذا الوجه ، لا تبقى حاجة علمية في نفس يعقوب ، وكل ما ذكرناه هنا من تفاصيل صهيب والهروي اخذناه من مادتهما في الكتاب .

اما الهدف ، فقد قال المؤلف في اول كلامه المتعلق بهذا الهدف (ص ٣٥) : « ان هذا البحث اول محاولة علمية لتفسير التاريخ الاسلامي تفسيرا قوميا ، وللبرهنة على ان حملة العلم في الاسلام جلهم العرب لا الموالي ، ببحث موضوعي عن انتساب العرب الى المواطن الاعجمية وايراد مجموعة كبيرة من العلماء العرب عبر العصور في مختلف العلوم والاداب والفنون ممن كان يظن انهم من غير العرب بسبب نسبتهم الى المواطن الاعجمية » .

ثم قال المؤلف بعد ذلك : « وكان من دواعي تاليف هذا الكتاب اضافة الى ما تقدم ، والى ما دونته من الحقائق العلمية الجديدة في ابوابه وفصوله المختلفة — ما نجده من نسبة العربي الذي يعيش في فارس او الهند او تركيا ... الخ الى قومية غير عربية فيعد فارسيا او هنديا او تركيا ، حتى ليخل للباحث ان المقصود من ذلك هو « تتريك » العربي او « تعجمه » او « تهنيده » .

واما كيفية التوصل الى معرفة عروبة العلماء فقد قال المؤلف : « اما الباب الثالث فقد ذكرت فيه اصول البحث في عروبة العلماء وكيفية التوصل الى معرفتها عن طريق معرفة البيوتات العربية في المشرق الاسلامي ، وعن طريق الاجازات العلمية ، ودراسة الصيغ الاعجمية في اسماء العلماء العرب : وعن طريق الاحاطة ببطون القبائل العربية وافخاذها » .

ولا باس ان ننقل بعض نماذج من الجدول المنظم في نحو من ١٦ صفحة والمبني لاسم العالم والقبيلة التي ينتمي اليها وسنة وفاته :

جوير البلخي من الازد ت ١٤٠ هـ
علي بن ابي طلحة الجزري — هاشمي ت ١٤٣ هـ
نص بن حاجب الخراساني — قرشي ت ١٤٥
ابو طيبة الجرجاني — دارمي ت ١٥٢ هـ
ابو قرة الرهاوي — تميمي ت ١٥٥ هـ
زفر بن الهذيل الاصبهاني — تميمي ت ١٥٨ هـ
بكير بن معروف النيسابوري — اسدي ت ١٦٢هـ

وهنا امور نسجلها بكل غبطة : الكتاب من منشورات « وزارة الاعلام العراقية » وهذا اسهام كبير وفائدته لا تعود الى العراق وحده ، بل الى الامة العربية الكبرى من المحيط الى الخليج واعالي شمالي العراق ، ونشكر وزارة الاعلام على اضطلاعها بهذا . والكتاب جميل التقسيم وترى حسن التيسير سازيا في كل وضع من اوضاعه ، تتصفحه فكانك في مروج كثرت ازعارها ، وعبق اريجها ؛ وغنى الشحرور على ورودها ، انيق الطباعة ، وهو في ٥١٥ صفحة ناصعة كالاقحوان اللبناني وله مقدمة بالانكليزية بالاضافة الى مقدمته العربية ، ليدرك من الانكليزية لغته لباب محتواه ، وقد تم اخراجه السنة الماضية . وهذا هو الجزء الاول . الدكتور ناجي معروف هو استاذ الحضارة العربية في جامعة بغداد .

« تاريخ علماء المستنصرية » : « المستنصرية » ، نسبة الى الخليفة المستنصر العباسي ابن الخليفة الظاهر بالله ، وما بعده الا ابنه الخليفة المستعصم الذي قتل على يد هولاكو سنة ٦٤٠ هـ والمستنصر مدة خلافته ١٧ سنة هجرية الا شهرا وكان كما قال المؤرخ الخضري ، « شهما جوادا يباري الريح كرما وجودا » وهو مؤسس المدرسة المستنصرية في بغداد وصاحب المآثر والآثار العظيمة ، اعظمها المدرسة الجامعة المستنصرية على شط دجلة من الجانب الشرقي مما يلي دار الخلافة .

ولعله من دواعي الاعتزاز ان نقول واسم المستنصرية وعلمائها سنتكلم عن ذلك كله الان ، ان دولة العراق اليوم قد ابتنت من جديد المدرسة الجامعة المستنصرية في نفس مكانها السابق بناء مدهشا في ترف الفن وخلابة الهندسة . وهي شبه مدينة صغيرة في بغداد او حي كامل يتلألأ عجبا وفخرا . وقد راينا هذا كله سنة ١٩٧٣ لما عقد « المؤتمر الدولي للتاريخ » في بغداد وكان انعقاده في الجامعة المستنصرية الجديدة ، وهي اليوم من زينة بغداد ومجلى بهجتها حقا . وكنا في روحاتنا وغدواتنا الى المؤتمر . كلما دخلنا تلك البوابات الفخمة المبنية من الحجر الاصفر ، نتخيل لا بغداد المستنصر مشيد هذه الجامعة ، بل بغداد ابي جعفر المنصور ، وبغداد هرون الرشيد والمامون والمعتصم .

نعود الى السكة السلطانية : فالدكتور ناجي معروف ، ومعه ناخذ ونعطي حول كتبه القيمة : وضع « تاريخ علماء المستنصرية » التي تأسست سنة ٦٢٥ هـ وافتتحت سنة ٦٣١ هـ وبقيت رغم الحوادث والكوارث

طبيب الاسنان

يجزيك ربك كم طببت انسانا	وكم نزعت من الاسنان الوانا
وكم ازلت من الالام اكربها	وكم صنعت لمن يشكون تيجانا
ياتيك كل فم سبحان بارئه	اذا تكلم خلت الشق دكانا
اضراسه منذ عهد الترك ما برحت	اذا حفرت وجدت الجذر كدانا (١)
بها من الحطب المنخور طائفة	قامت على جانبي الفك كثبانا
وللسان مدار في ملاعبه	كما شهدت بقعر الوكر ثعبانا
حذار منه فان السم لدغته	وكم تبدت على كفيه بلوانا
يا صانع الحشوة الفراء تسكبها	يا ليت تسكب حلق الناس احيانا
فقد سئمنا احاديثا يكررها	ذوو الضغائن تزويرا وبهتانا
او ليت تقلع ذاك الفك .. لا اسف	بل اننا نحمد الرحمن مولانا
ما يدخل الفم لا تلويث يحدثه	لكن نطق رديء القول يفشانا

(١) الكدان : الحجارة الرخوة النخرة

حمص .

عبدو مسوح

والنكبات ، تحمل المشعل وتضيء حتى سنة ٦٥٦.٣هـ (١)

كما حقق المنقب البحاثة ، المؤلف العلامة ، والحق ان وضع مثل هذا التاريخ القائم بلحمته وسداه على التقاط هذه الخيوط الرفيعة من مئات المراجع المطبوعة والمخطوطة لمئات من العلماء والفقهاء والمدرسين ورجال الادارة والتدبير، بحيث لم يترك ناحية تتعلق بالمستنصرية الا جلاها ، واتاك بما يمكن ان يطاله الخبر اليقين منها ، لعمل كبير عظيم ، ننحني له تحية فائقة الاعجاب . وهذا التاريخ في مجلدين من القطع الكبير ، والاول في ٤٨٠ صفحة والثاني في ٥١٦ صفحة منها ١٤٠ صفحة تكملة الابحاث والباقي ذيول وفهارس مختلفة ، تحصي كل شيء من اسماط الحقائق والاعلام والاماكن . ومن هذه الفهارس التي يقدرها المطالع كل القدر لما تفيض عليه من التيسير « فهرس الاسماء والانساب والكنى والالقاب والدول والاقوام » ، وشغل هذا الفهرس المفصل اكثر من مئة صفحة ، هذا الى خرائط بالعشرات ورسوم الاثار الباقية من عهد المستنصر وقبله .

ونقول على الجملة ، كما ان كتاب « عروبة العلماء المنسوبين الى البلدان الاعجمية في الشرق الاسلامي » يفتح امامنا افقا جديدا غير مسبوق المثيل ، كذلك « تاريخ علماء المستنصرية » يحيي لنا عظمة المستنصرية وهي في ابان ازدهارها ، وكلها دوي كدوي النحل ، تعج بالاف الطلاب والمدرسين والفقهاء من المذاهب الاربعة .

وقد بحث المؤلف المستقصي في انظمة المستنصرية من حيث التعليم والادارة ، واستطاع ان يكشف عن اسماء العاملين فيها « والموظفين » بلغة هذا العصر الحاضر ، فلم يبق وضع من اوضاع الجامعة الا وصفه واحصاه .

وكان الدكتور الموفق ناجي معروف في عبارة « الاهداء » ملامسا قلب كل عربي في المشارق والمغارب لما قال :

« الى روح المستنصر بالله الخليفة العباسي ، اعترافا بفضله على العلم ، بتأسيسه المستنصرية ، اول جامعة اسلامية كبرى في العالم الاسلامي ، رفعت اسم بغداد عاليا بين البلاد ، وقدم علماؤها اجل الخدمات للحضارة العربية والثقافة الاسلامية » وساعدت جامعة بغداد على طبع هذا السفر النفيس ، ونعم المساعدة بين شقيقين وبينهما عدة قرون .

نقف عند هذا الحد اليوم في نظرنا في مؤلفات الدكتور العلامة ، وكتبه ورسائله فوق الثمانين ، وكلها طريف شائق ممتع ، يغذي الذهن وتنشط له النفس ويبعث على زيادة الايمان بان الامة العربية بالثة المحجة المخططة والغاية المرصودة ، ومن جملة هذا تجفيف اسرائيل وتجميد الدم في عروقها .

راس المتن — لبنان

عجاج نويهض

(١) ما عدا فترتين ، الاولى قصيرة والثانية طويلة ، بسبب المغول .



رشاد علي اديب

رشاد علي اديب

بقلم حسان الكاتب

***

شاعر اديب باحث ناقد من مواليد جبلة على الساحل السوري ، نشأ في احضان العلم والفضل ، وعاش طول حياته في جو من العز والنعمة وفي رحاب المطالعة والدرس .

هو الأستاذ رشاد بن الاستاذ راغب بن الحاج طه علي اديب ولد عام ١٩٠٩ (١) وكان والده مفتيا لجبلة بعد ابيه ، وقد انتخب والد الشاعر عضوا في مجلس العموم بولاية بيروت لان جبلة كانت حينذاك تابعة لها . وانتخب ايضا قاضيا في محكمة بداية جبلة وكان بعض القضاة ينتخبون في زمن الحكم التركي ثم عين قاضيا في محكمة بداية اللاذقية ليستثنى من الخدمة العسكرية ابان الحرب العظمى بعد ان الغت الدولة البدل النقدي لاحتياجها الى الجنود مع انه كان وحيد ابويه واستلم الافتاء بعد وفاة ابيه عام ١٩٢١ وعلى اثر وفاته عام ١٩٣٧ انتخب ولده نذير مفتيا وبقي زهاء ثلاث وعشرين سنة مفتيا ثم ترك الافتاء لانه انتخب عضوا في مجلس الامة بمصر زمن الوحدة ثم نائبا عن جبلة في مجلس النواب بدمشق .

ويرجع اصل الاسرة الى حلب حيث نزحت عنها منذ مئتي سنة ونيف وتعود شجرة العائلة الى الخليفة الراشد الثاني عمر بن الخطاب رضي الله عنه .

(١) كما ذكر لي برسالته المؤرخة ٦-١٢-١٩٧٢ .

تلقى المترجم مبادىء القراءة والكتابة على يد معلم من اقربائه حيث احضره والده الى مسجد الاسرة الكائن حيال البيت الذي كانت الاسرة تقيم فيه سابقا وخلال بضعة اشهر ختم القرآن الكريم وتعلم القراءة والكتابة والاملاء والاعمال الحسابية الاربعة . ثم انتقل الى المدرسة الرشدية في جبلة عام ١٩١٧ وبعد ان اكمل دراسته فيها ارسله جده ووالده عام ١٩٢٠ الى الكلية الاسلامية في بيروت لمؤسسها وعميدها الشيخ احمد عباس الازهري وكان عالما جليلا وله فضل كبير على النشء اذ بث الروح القومية والوطنية في نفوسهم . وقد شنق جمال السفاح افرادا من خريجي هذه المدرسة وطلابها واساتذتها ونفت الحكومة رئيسها الى الاستانة وكانت دراسته في هذه الكلية بالقسم الداخلي فتلقى فيها العلوم العربية والدينية ولم يكمل دراسته فيها بل انتقل بعد سنتين الى مدرسة الفرير في اللاذقية وبقي فيها زهاء ثلاثة اشهر فلم يستفد منها فانتقل عام ١٩٢٤ الى مدرسة عينطورة المشهورة ودرس فيها سنة واحدة ، فانتظم طالبا داخليا فيها وقد استفاد منها كثيرا ولكنه تركها بسبب نظامها القاسي حيث كان والده يترك له الحرية في ذلك .. وقد ترك الدراسة اربع سنوات ومن ثم تابع دراسته الخاصة في البيت ومراجعة الكتب الادبية والتاريخية والعلمية التي كانت مكتبة والده تزخر بها وهي كثيرة وجيدة وكان يطالع الصحف والمجلات التي كان والده مشتركا بها بالاضافة الى مجلة الهلال والسياسة الاسبوعية والميزان التي اشترك بها شخصيا . ثم مضى الى الكلية العلمية الوطنية في دمشق وتسجل بقسمها الداخلي وكان استاذ الادب العربي في صفها الاول الشيخ عبد القادر المغربي نائب رئيس المجمع العلمي العربي الذي انتخب فيما بعد رئيسا للمجمع بعد وفاة رئيسه الاستاذ محمد كرد علي ومنها حصل على الشهادة الثانوية وانتسب الى معهد الحقوق بعد نجاحه بفحص الدخول وكان زميله في المعهد والدي (يقصد به والد كاتب المقال : بدر الدين بن احمد جودة الكاتب (٢) فنال اجازة الحقوق عام ١٩٣٩ وانتسب الى نقابة المحامين باللاذقية عام ١٩٤١ فمارس المحاماة في جبلة ثم عين قاضيا في اللاذقية عام ١٩٥١ ومارس القضاء فيها ثماني سنوات ثم نقل الى الرقة رئيسا للنيابة فلم يستطع العيش هناك فقدم استقالته للمرة الاولى ولكن الامين العام طواها ووعده بترقيته الى محام عام في بلد آخر قريبا جدا ولكنه لم يستطع الانتظار فقدم استقالته للمرة الثانية

(٢) كما ذكر لي في احدى رسائله التي نشرت في مجلة الاديب عدد نوفمبر - تشرين الثاني ١٩٧٢ .

طالبا بالحاح قبولها .. وهكذا تخلص من خشونة الغربة النائية وقيد الوظيفة عام ١٩٥٩ وعاد الى جبلة وسجل نفسه مرة ثانية في نقابة المحامين عام ١٩٦١ الا انه لم يمارس مهنة المحاماة لان صحته لم تساعده .

وقد تفرغ اخيرا لممارسة هوايته في الكتابة والنقد والتاليف والمطالعة في مكتبته الضخمة وهو يساهم في نشر مقالاته ودراساته الادبية في المجلات العربية كمجلة الهلال والاديب والضاد والتمدن الاسلامي ومجلة الكلمة الحلبية والمعرفة الدمشقية وكان يمارس الكتابة خلال وجوده في معهد الحقوق بدمشق فنشر القصائد الوطنية والغزلية وغيرها في صحف الانشاء والايام والقبس والعمل القومي والشعب لصاحبها توفيق جانا .

وقد بدا ينظم الشعر اول عام ١٩٢٥ ومن اولى قصائده قصيدة وطنية نشرت في مجلة اللطائف العصرية ببيروت وعنوانها « وطني المحبوب » وهذا مطلعها :

وطني المحبوب امجده ... واقدسه واشيده
افديه بنفس مخلصة ... تهوى ابدا من يسعده

وموشح وطني عنوانه « موشح الفيحاء » يقول في مطلعه :

يا بني الشام اصمد واجرح الحمى ... واجمعوا الشمل ولا تتصدعوا
لا تهابوا جزعا مرأى الدما ... ان آساد الشرى لا تجزع

وقصيدة وصفية بعنوان « امير الشعراء » في لبنان يقول في مطلعها :

الشعر منك يسيره وكثيره ... كالدر نفبد حاليا منثوره
اقتنته فنا وقدت عنانه ... وملكت ابحره فانت اميره

وقد نشرت هذين البيتين في ذلك الحين صحيفة « الاعتدال » في اللاذقية والقصيدة تبلغ خمسة وخمسين بيتا وتحتوي على وصف مناظر لبنان الجميلة الخلابة مقتديا ومتاثرا بقصيدة شوقي الرائعة التي القيت في بكفيا ومطلعها :

السحر من سود العيون لقيته ... والبابلي بلحظهن سقيته

ثم توالت قصائده وكان اغلبها في الغزل والوصف والحماسة .. واولى قصائده في الغزل قصيدة عنوانها « زر محبا » وهذا مطلعها :

زر محبا مل بعدك ... واحب الموت بعدك
قد جرعت الصبر اكوا ... با بحرماني شهدك

وقد تغنت بها وسجلتها في اسطوانة ببيروت المطربة السيدة انية المصرية وهي ضريرة وذات صوت جهوري بديع ومقرئة حافظة للقرآن الكريم متقنة تجويده وكانت تنشد اكثر اغاني المطرب والملحن الشهير « ابو العلي محمد » فيأتي صوتها ولحنها طبق الاصل .

ومن اوائل غزله ايضا قصيدة عنوانها « تيمتني » وهذا مطلعها :

تيمتني بهواها ... غادة روحي فداها
ورمتني بسهام ... سددتها مقلتاها

وقد تغنت بها المطربة سعاد محاسن وسجلتها في اسطوانة بالقاهرة ونشرتها مجلة « الصباح » المصرية .

والاستاذ رشاد دؤوب جدا على البحث والدراسة والتعليق والمراسلات الادبية فلا يخلو بلد عربي الا وله فيه اديب او اكثر تربطه به علاقات وثيقة وطيدة ، وذلك لما امتاز به الشاعر والاديب الكبير من نفس كبيرة ومعاملة طيبة واخوة صادقة وشهرة عريضة ولو استعرضنا مجلات الاديب او الضاد او الكلمة او التمدن الاسلامي. لوجدنا له في كل عدد دراسة او تعليق او رسالة ادبية أو مقالة او قصيدة شعرية كما ان له تعليقات فنية وشعر في وصف مشاهير اهل الفن ، ففي مجلة الهلال(٣) الصادرة في تشرين الاول ١٩٧٣ قرات له قصيدة رائعة موجهة الى كوكب الشرق ام كلثوم يقول في مطلعها :

هذه ليلتي فبثي الغناء ... يسكر الارض لحنه ....
ويلذ الاسماع في كل آن ... طربا ممتعا يديم الصفاء
ويريح الارواح من كل عبء ... متعب مرهق ويزجي الهناء
وينيل الجوانح الانس والبشـ ... ـر فتسمو مجنحات علاء
حالمات مرنحات سكارى ... تتهادى تخايلا وانتشاء
صوتك العذب ينعش الحس والنفـ ... ـس ويحيي بنا المنى والرجاء
هو للناس لذة وحبور ... يطرد الهم والاسى والعناء
يا لصوت ملائكي جلي ... جهوري صاف يجوب الفضاء
رق شدوا وراق لينا وحسنا ... وحنانا ونبرة ونقاء
وحلا نغمة كمزمار داو ... د يهز النفوس والاحشاء
ورنينا كرنة الذهب الابـ ... ـريز شاق الآذان والاجواء
فاق تغريد بلبل وهزار ... وكنار فلا يضاهى ذكاء
يلتقي العندليب وجدا فيصغي ... لصدى سحره البديع بهاء
كل ضيم مرنم يتلقى الـ ... ـلحن عنه ويأخذ الاصداء

والقصيدة طويلة تقع في (٥١) بيتا اقتطفت منها الابيات السابقة .

ولقد تاثر الشاعر بالموشحات الاندلسية وبابن نزار الاندلسي بالذات فنظم موشحا بعنوان « جودي » وقد قرظها صاحب مجلة الضاد الاديب الشاعر الاستاذ عبد الله يوركي حلاق بقوله : « الاديب الكبير المحبوب الأستاذ رشاد علي اديب ، الذي خص مجلتنا (الكلمة) بموشح بديع جعله على نمط موشح ابن نزار الاندلسي . وهو كما يرى قراؤنا الكرام : مبتكر الاسلوب وفذ بطرازه الجميل فنتوجه اليه بالشكر مرحبين بنتاج قريحته الخصبة وروائع قلمه السيال » ويقول الشاعر في مطلع هذا الموشح :

يا ... البهاء في الوجود ... جودي
الحب في جوانح الانام ... نام
ولاعج الاشواق والغرام ... رام
والدمع من آماق مستهام ... هام
صلي فلي وصالك السعيد ... عيدي
اضعت في مواكب الجمال ... مالي
وساء في مراكب المحال ... حالي
وارتاع من صوالب النبال ... بالي

---

(٣) انظر ص ١٤٤ من عدد اكتوبر ١٩٧٣

يا من لـوت بالعهد والوعـــود عودي
انـت وحـق نفـرلد العـســول مـولي
يا فتنـة الابصار والعقـــول قـولي
يا لجلـسون الوطـف كالنصـول صـولي

والموشحة طويلة تقـع في احد عشر بيتا اي دورا كما هو في اصطلاح الوشاحين اقتطفنا منها ما تقدم .

وللاديب الشاعر باع طويل في الدراسة والبحث كما ذكرنا آنفا فهو يقول في دراسة له عن الشاعر القروي رشيد سليم الخوري :

« هو شاعر الوطنية والعروبة والثورة السورية . ولد عام ١٨٨٧ في قرية البربارة الواقعة بين جبيل والبترون ، وتعلم فيها وفي مدرسة الفنون الامريكية بصيدا ، والكلية السورية الانجيلية ببيروت ، وقد سميت فيما بعد « الكلية الامريكية » وعلم في مدرستي طرابلس والميناء الامريكيتين والكلية الشرقية بزحله ومدرسة الامريكان بسوق الغرب وغيرها . وهو ملم باللغتين الانكليزية والبرتغالية . وأخذ الشعر عن ابيه ، وقوة البنية منه ومن اخواله الرحبانيين ، كما انه اكتسب الصوت الرخيم منهم ومن اهل قريته ، فكان ينشد اشعاره على رنات عوده . وقد هاجر الى (٤) البرازيل بدعوة ملحة من عمه ، وذلك في عام ١٩١٣ بعد وفاة ابيه بثلاث سنوات وتبعه اخوه قيصر الملقب بالشاعر المدني » .

وكما ذكرت ايضا فانه ينشر في العديد من المجلات العربية ويطالع جل المجلات التي تصدر في الوطن العربي .. ففي احدى رسائله لي يذكر بعض انطباعاته عن مجلة التمدن الاسلامي فيقول : « وصل الي امس العدد الاخير من مجلة التمدن الاسلامي واعجبني فيها مقالا للاستاذ الجليل السيد احمد مظهر العظمة في التفسير والحديث ومقالة الاستاذ محمد كمال الخطيب بعنوان : حضارتان عريقتان : ومقالتك البارعة بعنوان « العالمية في الاسلام » (٥) .

وللمترجم شعر في المناسبات القومية والدينية ففي قصيدته « حريق المسجد الاقصى » يقول :

اي شر طـمى واي الـــام جبلتـه أيدي العلوج اللئام
البغـاة الطغـاة في كل ارض وشرار الورى الجناة الطغام
جيل صهيون اخبث الناس مكرا وخداعـا واسفـل الاقوام
صغروا انفسـا وخـوا طباعا وفعـالا بشـائن الاجـرام
ضرب الذل والشتـات عليهم من قديم الزمان والاعوام (٦)

والقصيدة تقع في ٣٧ بيتا .

وفي قصيدته « ايها العرب » يقول :

وطدوا العزم واصدقوا الافعـالا ايها العرب واطردوا الانـدالا
عصبة البغي والبغـاء بني صهـ يون من دنسوا الديار احتلالا

(٤) عن مجلة (الضاد) الحلبية الصادرة في شباط ١٩٧٢ السنة (٢)

(٥) كما ذكر لي في رسالته المؤرخة ٢١-٢-١٩٧٢

(٦) عن مجلة التمدن الاسلامي العدد الصادر في كانون اول١٩٧٢

وعنوا خسة وعاثوا فسادا واستباحوا الحمى وتاهوا ضلالا
عل حيفـون ان يدوسوا حماكم ويسوموكـم اذى ونكـالا
نحن أبناء يعرب نرفض الضيـ ـم ونأبى تخاذلا وانخزالا (٧)

وله قصيدة بعنوان « تحية الشام » يقول فيها :

بلغت فؤادي الصابي المراما كما تهوى برؤيتك الشاما
فبلغهـا حنينـك في خشـوع واد لهـا التحية والسلاما
ونـاج الذكريات وطيب عهد تقضى في مغانيهـا انصرامـا
لقد احببتهـا اذ انـت غض بريعـان الصبـا حبا لزاما

وبمناسبة عيد الاضحى المبارك (٨) يقول :

تجلى على الدنيا سنى عيدنا الاضحى فبشرى لمن صلى وحج ومن ضحى
الا انه عيد سعيـد مبـارك يعيد تليد المجد نمحضه المدحا
ويبهجنا في انسه وصفائـه ويرغدنا بشرا ويسعدنا نجحا
ويحيي لنـا آمالنـا ورجاءنـا ويكسبنا نصرا ويمنحنا فتحا

وللاديب الشاعر قصائد شعرية يتبادلها مع اقرانه الادباء ففي قصيدة له اهداها للباحث السوري الاستاذ عبد القادر عياش يقول فيها : (٩)

ابا فاروق قـد الفت سفرا كنير التنفـع تحيا فيه ذكرا
نشرت به (اهتمامات) النـارت عـن التاريخ والاثار فكرا
واحييـت التراث تـراث واد خصيـب للفرات يفيض تبرا
ولم تفتـا تمجده وترجـو لـه خيرا واقبـالا ويسرا
فلا بـدع اذا اولاك شكـرا بنـوه وكرموك على وقدرا

وفي قصيدة اهداها للباحث الشاعر الاستاذ محمد عبد الغني حسن يقول فيها : (١٠)

اسدى الشريف من اللجين (روجر) كرة تبين مدى الدنى بصنوف
احبب بسفر للشريف محمد يحوي من الاقوال كل شريف
وبسفر من املى وعرفنـا به عبد الغني الجهبـذ المعروف
فلقـد افاد بني العروبة كلهم ببدائـع التاليف والتصنيف

وفي قصيدة اهداها الي بمناسبة اهدائه « الموسوعة الموجزة » يقول : (١١)

احسنت (حسان) في موسوعة حفلت بالعلم والفن والتاريخ والادب
اتقنت تاليفها فهما ومعرفة وصنتها عن دواعي الشك والريب
وزنتها بكـلام صيغ من درر يزهو ويحلو مدى الايام والحقب
رقت طباعتها حسنـا بجدتهـا فاسفرت احرفا كالنجم والشهب
فاضت فوائدهـا للناس هامية فاصبحت عندهم من افضل الكتب
اولاك ربـك تيسيرا لتكملهـا فانهـا تحفـة زهراء للعـرب

وهو يقول للشاعر زكي قنصل :

ايها الشاعر المبدع : لقد تفضلت باهدائك الي ديوانك « نور ونار » وهو اسم على مسمى لانه نور لابناء

(٧) عن مجلة التمدن الاسلامي الصادرة في دمشق في شهر اذار ١٩٧٢

(٨) عن مجلة التمدن ـ قصيدة بعنوان (عيد الاضحى المبارك) عدد اذار ١٩٧٢

(٩) عن مجلة الاديب ـ عدد حزيران ـ يونيو ١٩٧١ والابيات قيلت بمناسبة اهداء الاستاذ عياش كتابه (اهتمامات) الذي صدر في تموز ١٩٧٢ للشاعر .

(١٠) عن مجلة الاديب العدد الصادر في مايو ١٩٧٢ بمناسبة اهداء المترجم كتاب (الشريف الادريسي) للاستاذ عبد الغني حسن.

(١١) الاديب العدد (١١) السنة ٢١ ـ عام ١٩٧٢ .

يعرب ونار على اعدائهم وان قصائدك الجميلة الطريفة تدل على شاعريتك العذبة الخصبة وخيالك الحلق المجنح ووطنيتك الجامحة الصادقة وقوميتك الخالصة فمرحى لك ولنهجك القويم وسيرك المستقيم واليك مني هذه الابيات :

ايها القنصل الاديب الكبير   انت بالشعر للانام سفير
ان ديوانك البديع فريد   بخيالاته ونار ونور
وقوافيه ساميات المعاني   كلها رقة حلت وشعور
تتلظى حماسة وابـاء   وشموخا وعاطفات تثور
انت لا ريب شاعر المعي   باجل التكريم حقا جدير

والاستاذ اديب اضافة الى انه اديب وشاعر فهو باحث محقق ومدقق فقد اهداه البحاثة الشيخ ابراهيم القطان كتابه « عثرات المنجد » فعلق على هذه الهدية بقوله : « وعلى كل فان للمؤلف فضلا كبيرا بتصحيح وتنقيح اغلاط الاب فرديناند ورفاقه الافاضل وتحريفاتهم الكثيرة . وانه ليشكر على قيامه لهذه المهمة الجليلة التي لا يستطيع القيام بها الا امثاله من العلماء الاجلاء والمحققين الالباء .

ولا ارى بدا في الختام من القول باني كنت خضت في هذا البحث من عشرة اعوام اي منذ عام ١٩٦٣ وما بعده حين نشر الاديب الباحث الاستاذ منير العمادي في مجلة المعرفة الدمشقية نقدا لاعلام المنجد وكان مصيبا في اكثر نقده ولكنه تعثر في بعضه فاضطررت لتبيين هفواته على صفحات « المعرفة » ولا ينكر فضله في التصدي لهذا الموضوع الدقيق المفيد فله شكر العالم العربي » .

وقد امتدت صداقات المترجم الى المهجر الامريكي فهو يراسل كبار ادباء المهجر امثال الاستاذ الياس قنصل وفيما يلي تقريظ لقصة « في مهب الريح » تاليف الاستاذ الياس قنصل :

« قصة بارعة ماتعة تاليف الاديب الالمعي والشاعر المهجري الاستاذ الياس قنصل طبعت في (بونس ايرس) سنة ١٩٧٢ وتضم ٢١١ صفحة من الحجم الكبير تكرم باهدائها الى المؤلف الفاضل وهي قصة انسانية اجتماعية وخلاصتها ان احد ابناء القرى القريبة من دمشق وهو فلاح فقير ساذج يدعى عساف دردش احب فتاة جميلة من بنات قريته تدعى سلمى سركيس اذ رآها على شاطىء النهر تملأ جرتها فتبعها وسالها عن اسم ابيها فقالت له سل اخي الصغير فلما سالته امتنع عن الاجابة فلم يزل يداعبه ويمازحه حتى قال له ان اسم ابيه منصور سركيس .. » وهو يقدم في آخر الدراسة الابيات التالية : (١٢)

اشد بالياس قنصل من بعيد   اديب المهجر العلم الفريد
وشاعره المحلق والمجلي   باجواء القوافي والقصيد

(١٢) الاديب – الجزء ٢ – السنة ٣٢ – ١٩٧٣ .

ومبدع اروع القصص الروائي   الى الجوزاء بالفكر السديد

والاديب النبيل يتمتع بخصال فاضلة فهو يشجع كل من يهديه كتابا ويثني عليه ويمدحه شعرا فيترك اثرا عظيما في نفوس اصدقائه من المؤلفين والادباء والشعراء وهذه ابيات للشاعر والباحث العراقي الاستاذ عبد الرزاق الهلالي يشيد فيها بالاستاذ رشاد علي اديب : (١٣)

اطال الله عمرك يا رشاد   فقد طوقت جيدي باللآلىء
غداة مدحتني مدحا عظيما   يعبر عن عواطفك الغوالي
فلا عجب ، لانك ذو خصال   واخلاق تعز عن المثال
تقدر كل ذي ادب وفضل   وتكبر كل ذي سعي مثالي
وهذا منك خلق لا يجارى   وفضل منك يا زين الرجال
لقد قرظت تقريظا كريما   بشعر رائق عذب زلال
كتابا من عيون الشعر يروي   مقاطع بارعات الجمال

كما ان الاديب البحاثة الشاعر الاستاذ محمد العدناني اهدى للشاعر الكبير « معجم الاخطاء الشائعة » الذي اصدره اخيرا فافاد فيه كل اديب وشاعر وباحث ومهتم بالثقافة العربية فقال فيه الاستاذ رشاد ما يلي : (١٤)

« وكتب فيه مقدمة جيدة ماتعة افاض بها عن المراجع الصحيحة التي اعتمد عليها وذكر تمسكه بالقواعد السليمة وتجنبه الشذوذ اللغوي والنحوي وبدأ المعجم بحرف الهمزة وختمه بحرف الياء ووضع في اخره دليلا وفهرسا عامين شاملين ولم يأل جهدا بتنقيح ما ورد على السنة الناس من اخطاء شائعة مع ذكر اوجه الصواب بالادلة والبراهين والامثلة شان المحقق المتثبت ميسرا لمن يطالعه معرفة دقائق اللغة العربية مبينا له الفصيح والمولد والدخيل والمعرب والعامي وان له في ذلك فضلا كبيرا على ابناء الضاد يستحق عليه منهم الشكر الجزيل والثناء العطر وتكريما له اوجه اليه هذه الابيات :

حي الاديب العالم العدناني   يا شعر وانشر فضله ببيان
واشد بمعجمه الجلي فصاحة   صيغ الكلام به عقود جمان
كنز من الفصحى على صفحاته   اغلى من الياقوت والمرجان
يزهو على كل المعاجم حسنه   ويفيض بالابداع والاتقان
ويصحح الاخطاء شائعة على   افواه كتاب وكل لسان

وله قصائد في وصف المدن السورية فهو يصف مدينة جبلة مسقط رأسه بالابيات التالية : (١٥)

يا ليلة من ليالي الصيف مقمرة   حسن الطبيعة في مرآك اغراني
تلك السماء بزهر الانجم ازدانت   اما ورقت بالاقمار وشهبان
وهذه الارض ابدى وشي سندسها   الوان خمز بالافواف والوان
والطل منسجم والزهر مبتسم   والبحر يزهو بامواج وشطآن
قد هاج منظرك الزاهي بفرتنه   ونور طلعته وجدى ووجداني

واني اعتز بان الصداقة والمراسلة بيني وبين

(١٣) الاديب – العدد ٤ – السنة ٣٢ – ١٩٧٣

(١٤) الاديب – الجزء ١٠ – السنة ٣٢ – ١٩٧٣

(١٥) الموسوعة البجيلة – ج ٥ – بحث جبلة – لكاتب المقال .

الاستاذ الفاضل مستمرة فهو يقول لي في احدى رسائله ناصحا وموجها : « تحية الود والاخاء والولاء وبعد فقد وصلت رسالتك اللطيفة وانا في اللاذقية منذ اسبوعين اتداوى من مرض طارىء الم بي وآلمني فالجأني لمراجعة طبيب نطاسي وتحليل الدم وقد رجعت امس الى جبلة واني الان في دور النقه والحمد لله وساحتاج الى اسبوعين اخرين لاحصل على الشفاء انشاءالله ومع هذا العياء ابادر الى الاجابة على رسالتك الكريمة لانك اثير عندي فانقل اليك بعض ما قلته في حصن الاكراد ، كما اتفق على تسميته المؤرخون وياقوت الحموي في معجم البلدان وقد اصطلح العامة على تسميته بقلعة الحصن وهذه التسمية من الاخطاء التاريخية .

واليك بعض الابيات التي قلتها فيه عام ١٩٥٣ (١٦)

حصن عظيم الى الاكراد منتسب … كالابلق الفرد بين الناس مشتهر
بمرد مشرف من اوج قمته … على الجبال يليها السهل والوعر
تكاد لا تبلغ العقبان ذروته … وعند تزلق ابصار لمن نظروا
سمت به طبقات فى مدارجه … كالسحب فى طبقات الجو تأتزر
وحوله هوة ملساء واسعة … سحيقة النور منها يحصل الزعر
فلا الخيول ولا الفرسان تقحمها … وليس يقحمها المحتال والجلر
حصن تسور بالاسوار شاهقة … رحب الفناء اشمخر وسطه الحجر

الى ان يقول في رسالته ايضا : « وختاما تحياتي الخالصة لك ولسيادة والدك الكريم ودمتما بصفاء وحبور واليك ابياتا نظمتها في اللاذقية وانا مريض تقريظا للجزء الخامس من « الموسوعة الموجزة » :

موسوعة « حسان » بلدت … جل الموسوعات الكبرى

فيها نفع لمطالعها … تغني عن اسفار تترى
تزهو بعلوم زاهرة … وفنون باهرة غرا
ما احسنها صحفا جمعت … بحلاها الجوهر والدرا
ونفيس القول حوى نثرا … كجمان منثور نثرا
وحوى نظما كيواقيت … تستهوي الحسناء البكرا
اكرم بمصنفها الراقي … من جل بمعرفة فكرا
وابان بفهم خبرته … واقتاد الشهرة والفخرا
اسدى « حسان » احسانا … بتاليف خلدت ذكرا
لا غرو اذا لاقى وراى … اعجاب العالم والشكرا

اما مؤلفات الاستاذ رشاد فهي ما يلي ، الا انها لسوء الحظ لم تطبع بعد وحري بدور النشر اللبنانية ان تتهافت على طباعتها لما لها من نفع وفائدة لجميع مثقفي الوطن العربي .

١ ـ « كبار الشعراء في العصر الحديث » يقع في ستة اجزاء بدءا من الشاعر الملهم وحامل لواء الشعر ومجدده في عصره محمود سامي البارودي وتضم هذه الاجزاء سبعة وثلاثين شاعرا . وقد نهج بالكتابة خطة هي ذكر حياتهم وشاعريتهم واسلوبهم ومكانتهم الشعرية وانتاجهم واخطائهم ومنتخبات من اشعارهم .

٢ ـ « من ذكرياتي وحياتي » جزءان .

٣ ـ « مقالات » جزءان .

٤ ـ « تلاحين ورياحين » وهو ديوان شعر ضخم يضم خمسة اجزاء :

الجزء الاول : ويتضمن القصائد الادبية والوطنية والوصفية .

الجزء الثاني : ويتضمن القصائد الغزلية والخمرية

الجزء الثالث : ويتضمن القصائد النبوية والاجتماعية والاخوانية .

الجزء الرابع : ويتضمن القصائد الرثائية ومتفرقات كثيرة .

الجزء الخامس : خاص بالموشحات وهي سبعة وتسعون موشحا تحتوي على اكثر الابواب الشعرية ما عدا المدح والهجاء والرثاء .

والشاعر الكبير يتمتع باحاسيس ووجدانات سامية فحين توفي صديقه الدكتور زكي المحاسني رثاه بقصيدة طويلة تقع في خمسة وخمسين بيتا نذكر منها ما يلي (١٧) :

يا زكيا بقلبه وذكيا … بنهاه والالمعي الفطينه
كنت للناس نبع علم واداب … وفهم يفيض عذبا معينا
كنت للضاد والفصاحة ركنا … وعمادا من خيرة العلينا
كنت للنشء في المعاهد ذخرا … من كبار الافاضل العالينا

ونلاحظ مما تقدم باننا لم ندرس رشاد علي اديب فحسب بل درسنا الادب في الوطن العربي؛ وذلك لتشابك علاقاته الادبية الواسعة مع اشهر الادباء المعاصرين ، حتى وقد امتدت شهرته الى المهجر في اوروبا وامريكا .

دمشق ـ الجسر الابيض … حسان بدر الدين الكاتب

---

(١٦) ويذكر لي الاستاذ رشاد برسالته ايضا فيقول لقد نشرت هذه القصيدة الطويلة بتمامها فى مجلة الكلمة الحلبية منذ بضع سنوات فقط اي بعد نظمها بخمس عشرة سنة تقريبا وقد نظمتها على اثر كشف قررته محكمة استئناف الجزاء فى اللاذقية وذلك للنظر فى حادثة اصطدام لسيارتي شحن على جسر هناك لنهر العريضة ولم يخلص من الكشف حتى المساء فارتاينا النوم فى دير مار جرجس القريب فاستقبلنا مدير الدير وراهبه بالترحاب ولقينا منهما كل الاكرام وبعد ان افقنا من النوم طفنا فى معالم الدير الاثرية وبعد ان تغدينا ذهبنا الى حصن الاكراد واطلعنا على جميع اثاره وهي من اروع الاثار وعلى عظمة ذلك الحصن الذي يندر مثله وهذا مطلع القصيدة :

يا ليلة لذ فيها الانس والسمر … تفنى الليالي وتبقى بعدها الذكر
حييت من ليلة غراء زاهية … بدير مارجرجس اذطاب لي السهر
فى صحبة نجب رقت شمائلهم … وراق منهم فعال طيب عطر

وكان تاريخ تلك الرسالة ٢٥ـ٢ـ١٩٧٢

(١٧) لقد نشرت هذه القصيدة فى كتاب « تحية وذكرى للدكتور زكي المحاسني باقلام الذين عرفوه فى ادبه ونضاله من اعلام المفكرين والادباء » الذي طبعته زوجة الفقيد الاديبة الكبيرة السيدة وداد سكاكيني بمناسبة مرور عام على وفاته فى ٢٢ـ٣ـ١٩٧٢ ، وفى مجلة « الاديب » عدد تموز ١٩٧٢ .

بعد عامين

ابعدت عنها منذ يومين   ام فارقتني قبل عامين
كلا ، فهذي دمعة العين   لما تزل في وجنتي تجري

شجن بنفسي غال قوتها   كالشمس قد سلبت حرارتها
كرة قد افتقدت اشعتها   فغدت كبعض الصخر في القفر

حاولت بعض تماسك فغدا   عزمي وقد ناشدته بددا
اذ لا ازال الدهر مفتقدا   من استعين به على الدهر

كانت لدى الاصباح توقظني   وتعد افطاري وتطعمني
واليوم اصحو لا يحدثني   غير الذي يهتاج في صدري

قد كنت اسعى نحو جامعتي   فرحا افيض على تلامذتي
فاذا انتهيت ذكرت فاتنتي   فقصدتها في خفة الطير

واليوم اذ يدعوني العمل   ينحط بي الاعياء والكسل
امضي بطيئا حيث لا امل   يدعو الى الاسراع في السير

واعود منكفئا لاولادي   اخفي اساتي وظله بادي
ويح الردى ، ما ذنب اكبادي   حتى يعانوا حسرة العمر

كانت ترف على طلعتها   فكان لطف الله بسمتها
فتخف من بلواي حدتها   ويعود عسر الامر لليسر

كانت تهش لكل اخباري   القي عليها عبء اسراري
فتبيت تحملها باصرار   وبعضها انكى من الصخر

فاذا صمت رايت فطنتها   ترتاد من نفسي سريرتها
فتالة تدعو بديهتها   لتعينها في معضل الامر

فاذا فؤادي بين راحتها   شغفت نوابضه لمقلتها
فحبته من صافي مودتها   حبا يرف كنافح الزهر

قالوا جزعت ولم تطق صبرا   ولعل مثلك بالحجا احرى
قلت الفراغ يهيج الذكرى   فاثور مثل الموج في البحر

البيت بعد رحيلها خرب   ارنو لوحشته فاكتئب
تطغى غياهبه وتصطخب   واناه اسري بلا فجر

واذا دجاه اشتد ازعجني   فطفقت انشد من تهدئني
وهتفت ادعوها لتنقذني   اني .. ومن ادعوه لا يدري

عامان ؛ لست اعد ما مرا   فالحلو عندي ماثل المرا
والصبح يرسل ظلمة تترى   فعلام يحسب ذاك من عمري

ان كانت ارتاحت لدى الخلد   فانا الذي اشقى على البعد
وحدي ساقضي مدتي وحدي   حتى الاقيها على خير

الرياض ـ كلية اللغة العربية   ـ محمد رجب البيومي

الرجل الذي فقد اتزانه

بقلم حسني سيد لبيب

في احد المكاتب الحكومية الوقت صباحا : حوالي الثامنة والنصف ... ينظف عم بركة المكاتب. ويكنس الارض ، ويزيل الاتربة التي تراكمت على الدوسيهات والملفات المتراصة . انه كهل تجاوز الاربعين. اسمر البشرة ، يرتدي بزة صفراء كالحة ، وشعره المجعد يكمل الصورة السوداء لوجهه ، وتبدو اسنانه الناصعة البياض كالحلية البراقة يتزين بها وجهه . يتناهى الى اذنيه دبيب اقدام، تنبىء عن قدوم الاستاذ حامد منصور .. يتبختر في مشيته، اصلع الراس ، ممتلىء الجسم ، وبرغم انه تجاوز الثلاثين ، الا انه يتمنى ان يكون اصغر من ذلك بكثير . هندامه لا يليق بحجم جسمه او سنه ، تلتف ياقة الفانلة البيضاء حول رقبته ، في استدارة كاملة مشابهة لاستدارة وجهه .

يطوح يديه في خيلاء ذات اليمين وذات الشمال ، ترتسم الصرامة والجدية على قسمات وجهه ، وكانه يحمل هموم البشر . يلقي تحية الصباح ، لاويا شفتيه كالعادة . يترك عم بركة ما بيديه، ويهرع اليه، ويقف قبالته في ادب زائد .

— قلت الف مرة لازم تحضر مبكرا لا يعقل اقعد في المكتب وانت تثير التراب حولي . هـذا عملك الذي تاكل منه عيشا ، انت وزوجتك واولادك .. انت فاهم .

— حاضر يا استاذ حامد .

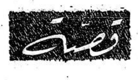
— اعمل فنجان قهوة مضبوطا .

يخرج عم بركه لاعداد القهوة . دون تاثر بكلماته ، فقد تعود على سماعها كل يوم . ومن المستحيل تواجده قبل هذا الموعد ، وقد شرح له مرارا ازمة المواصلات التي يعاني منها الجميع ، والمشوار الطويل الذي يقطعه من المرج الى المصلحة ينتظر القطار الذي يوصله الى ميدان رمسيس ، حيث ينتظر السيارة ، واحيانا يضطر الى مشي بقية المشوار . لكن الاستاذ حامد ينسى كل هـذا ويسترسل في نصائحه .. وكثيرا ما يتساءل عم بركة بينه وبين نفسه حول سر غضبه السريع ، وفسر ذلك بان امراته هي السبب ، كعادته في تفسير الاشياء، وجعل بنات حواء اصل الشقاء الانساني . ثم يفكر في نصائح الاستاذ حامد ويهتدي الى ان الحل ميسور ، لو استطاع الاستاذ حامد تاخير موعد وصوله قليلا ، او يصمت ولا يكرر نصائحه الغير مجدية .

لم يفكر عم بركة طويلا ، فقد اسرع بالقهوة اليه حتى لا يثير غضبه من جديد .

يرتشف القهوة ، ويشرد بالذهن الى نقاش الامس الطويل ، حيث احتدمت المناقشة بينه وبين محمود كامل واحمد ابراهيم . خرج عن وقاره ، واستشاط غضبا ، دائما يحاولون اثارته . وكم من المرات حاول جاهدا ان يكون رقيقا ، حلو الحديث ، ثم سرعان ما تحتد كلماته ويخرج عن وقاره .

يفكر في سبب ثورة الامس ، يحاول ان يفكر في هدوء . كان الحديث يدور حول شباب اليوم ، وانحرافه .. تدخل في المناقشة معارضا :



— الشباب بخير يا استاذ محمود.

وحرك يديه في توافق وانسجام مع كلماته ، كانه استاذ قدير يدري خبايا الشباب :

— المشكلة هي ان كل جيل قديم يحلو له لعن الجديد وذمه ، مشكلة كل زمان . لازم تؤمن بان لكل جيل همومه ومشاكله ، وانا بصفتي احد شباب هذا الجيل احس مدى ظلمكم للشباب .

وكان احمد ابراهيم يدرك ان سن حامد يقترب من سن محمود ، فتصيد هذه المغالطة ، واثار من حولها نقاشا طويلا .. وبرغم قدرة حامد على الاقناع والخروج من اي مازق ، الا أنه غضب اشد الغضب، وثار ثورته ، لا سيما حين قال له محمود :

— نحن لا نمثل الشباب ، انا عمري ثلاثين سنة ، وانت مثلي .. لكننا لسنا كل الشباب .

واكد احمد ابراهيم — اكبرهم سنا — هذه الحقيقة ، واتهم حامد بانه يفكر بعقلية شاب في العشرين ، منكرا عمره الحقيقي .

حين اشتد انفعال حامد ، حاول الخروج من هذا الانفعال بكلمة رقيقة ، فاغتصب ابتسامة مفتعلة وقال :

— نحن كبرنا ، ندعو الله ان يحسن ختامنا .

ثم قهقه بمفرده قهقهات عالية جلجل لها المكتب ، وسمعها عم بركة القابع على كرسيه عند الباب ، لكنه اعتاد ان يسمع هذه القهقهات ، واعتبرها من لزوميات الاستاذ حامد منصور .

ينتهي من شرب القهوة ، وما يزال شريط الذكريات في ذاكرته ينبهه الى مزالق الامس، حاول تغيير مجرى الحديث ، بدا وقورا وهو يقول :

— كنت احاول اثارتك يا استاذ

محمود . لكني اتفق معك في رايك عن شباب اليوم. وعلى سبيل المثال، امام شرفة شقتي ، يطل شاب من اباهم ؛ متعمدا الوقوف في شرفته بالفانلة الداخلية و .. ولوى شفتيه معبرا عن اشمئزازه ..

ـ منظر بايخ ، منعت امراتي من الوقوف في الشرفة ، بودي لو سددتها حتى استريح .

واطلق القهقهات عالية ، وكانه فرقع نكتة او اتى بدعابة يضج المجلس لها بالضحك ! اما زميلاه ، فقد انصتا لقهقهاته العالية دون ان ينبسا بشيء او حتى يبتسمان .

وهذا ما ضايقه منهما ، منتهى البرود ، بينما هو منفعل في الحديث، لماذا لا يشاركانه متاعبه و .. قهقهاته ؟

منذ يومين ، انهى الخصام مع زوجته . كان رقيقا معها ، ولو ان رقته تخفي وراءها بعض الكراهية. لا يدري لماذا تزوجها ، انها نحيفة ، كما انها تثير سخطه باهمالها الاعتناء بمظهرها ، وقناعتها بشغل البيت . واليوم ، احتد معها في الصباح وهو خارج الى عمله .

ويفكر في سبب هذه الحدة البالغة السوء ، والتي بلغت اوجها حين هددها بالطلاق. وتختلط هذه الحدة بنقاش الامس وما شابه من انفعال. ويتساءل : هل زميلاه يتحديانه ؟.. هل زوجته تتحداه ؟ ام انه غير منسجم مع هذا المجتمع ؟ لماذا تصاعد الموقف حتى هدد بالانفصال، والطلاق ؟ الان الافطار لم يعجبه ؟.. ام ان عدم اعتنائها بمظهرها سبب خفي وراء كل هذه المنازعات ؟

ابتسم بائع الجرائد وهو يناوله الجريدة ، هل يسخر منه ؟.. وعم بركة ؛ قال له وهو يضع فنجان القهوة :

ـ القهوة المضبوطة يا استاذ حامد ..

هل كلماته تنم عن التهكم ؟ هل انحرف مزاجه ؟.. ام ماذا ؟

يدخل الاستاذ محمود كامل . فيعتدل حامد في جلسته ، ثم يتناول احد الملفات ويقلب في اوراقه . يرد على تحية محمود بتحفظ شديد . ثم يحضر بعده بدقائق الاستاذ احمد ابراهيم ، ويكتمل بذلك موظفو المكتب الثلاثة .

يمسك ورقة ويكتب اجازة لمدة اسبوع ، بعد ان احس بحاجته الى راحة تزيح من صدره هذا العبء النفسي الثقيل . يقول لهما :

حسني سيد لبيب

*

ـ ساقوم باجازة .. اعصابي مرهقة .

يرد عليه احمد :

ـ حسنا تفعل .

يكتب الاجازة . ثم يقدمها الى سكرتارية المدير العام .

يتبادل احمد ومحمود اطراف الحديث حول الاجازة المفاجئة ، ويتفق الاثنان على مناقشته ، شيء ما يجعلهما يستمرئان المناقشة .

تمضي الساعات ثقيلة بعد تقديم الاجازة ، ويحاول ان يكون هادىء الطبع ، حلو الحديث . ويجد في الاقلال من الكلام وسيلة ناجحة لذلك : يستمر صامتا فترة ، لكن الصمت يعييه . فيستشعر ضيقا .

يقول له محمود فجاة :

ـ سمعت ان المدير العام غير موافق على الاجازة .

يبتسم حامد في تودد :

ـ امر سيادة المدير نافذ .

ويقول احمد :

ـ كيف يرفض اجازتك يا استاذ حامد ؟.. انت رجل خبير في عملك، وقد شهد لك الجميع بالكفاءة والاخلاص .

ويلتزم الهدوء اثناء حديثه :

ـ قد تكون لسيادة المدير آراء وجيهة..

ـ ان رفض الاجازة لموظف كفء مثلك يعتبر ..

يتردد احمد في اكمال العبارة ؛ ويرد محمود :

ـ تقصد اهانة ؟. لا اعتقد هذا.

وترن في اذني حامد كلمة اهانة، فتغيظه ، يتكلم موضحا :

ـ لن يصل الامر الى حد الاهانة، واذا كان يقصد اهانتي ، فالافضل تقديم استقالتي..

يعقب احمد :

ـ فعلا ، الاستقالة افضل .

يتروى حامد قليلا ، يشعل سيجارة ، ثم يقول وقد احمر وجهه غاضبا :

ـ لا.. الواحد يستقيل في الحالة الخطيرة ..

لم يكن يعرف بالضبط مقياس الحالة الخطيرة التي تضطره الى الاستقالة ، لكن محمود يعقب قائلا:

ـ حالة خطيرة مثل الاهانة .

يردف احمد :

ـ ورفض الاجازة تعتبر ..

فيكمل حامد متسرعاً :

ـ تعتبر اهانة . انا معك يا استاذ احمد في الراي ، انها اهانة .. اهانة فعلا .

يتوجه الى مكتب السكرتارية ويطلب سحب اجازته . يخبره السكرتير بانها لم تعرض بعد على المدير العام . يثور حامد . ويعلن

انه لن ينتظر حتى يرفض ، ويعجب السكرتير لنطقه الغير مفهوم . يسترجع حامد حديثا دار بينه وبين المدير امس ؛ فقد قال له :

— اريد منك انهاء هذه المأمورية بسرعة .

اعتبر تنبيه المدير له بالاسراع في انهاء المأمورية ، نوعا من التلميح بتقصيره في العمل ، ثم اعتبر ذلك احد الاسباب التي تجعله يرفض الاجازة .

يدخل المكتب جاحظ العينين ، يلقي نظراته في مختلف الاتجاهات ثم يصرخ :

— كلام فارغ .. خدمة عشرسنين تقابل باهانة . اقدم اجازة ، فترفض .

يسأل أحمد :

— هل رفضت ؟

— وهل انتظر حتى ترفض ؟

يمزق ورقة الاجازة ، ويعتبرذلك منتهى الاعتزاز بكرامته .. ثم ينفث دخان سيجارته في هدوء نسبي ، ثم يقول :

— اذا الواحد فقد كرامته ، يبقى ولا حاجة .. اهم شيء الكرامة .

يستطرد محمود :

— لكنها كرامة ناقصة .

— لماذا ؟

— لان الاجازة من حقك ، ويجب ان تصر عليها .

— أأقدم اجازة لترفض ؟

يرد احمد :

— اذا رفضها ، هناك الف حل وحل ..

يفكر حامد منصور طويلا في هذه الحلول الممكنة اذا ما قدم اجازة ورفضت .. هل ضاق به العمل حتى يقبع في هذا المكتب قانعا براتبه الذي يكفيه هو وزوجته بالكاد ؟ يفكر في الاستقالة التي ستحرره من هذا الفقر ؛ ويستطيع بكفاءته ان يعمل في اي بلد عربي ، فالرواتب هناك كبيرة .

يندفع قائلا :

— يا سلام لو الواحد حر نفسه ، كفاءتي الفنية ترشحني للعمل في اي مكان .

— امعك عقد عمل ؟

يسأل احمد . فيندفع حامد متحمسا :

— عقدان وشرفك .. واحد سعودي ، والثاني كويتي ..

لم يكن العقدان جاهزين كما تورط في الحديث ، وانما الامر لا يتعدى وعدا من صديق سعودي بارسال عقد عمل ، أما العقدالكويتي فهو اضافة من عنده ، حتى يشد انتباههما .

يقول احمد :

— ما الذي يضطرك الى البقاء هنا بهذا المرتب البسيط ؟

يرن الجرس، ويطلب فنجان قهوة، ويستمرىء الحديث عن كفاءته الفنية ، فيحدثهم عن الفترة التي عمل فيها بشركة بترول امريكية ، وشهادة الجميع له بالكفاءة،وشهادة التقدير التي منحتها له الشركة ، ثم يعدهم — ربما للمرة العشرين — باحضارها تاكيدا لما يقول .

يتناول ورقة، ويكتب الاستقالة، فيتأكد لزميليه صدق نواياه .

تعرض الاستقالة على المدير العام ، فيوافق،حسما للمشاكل التافهة التي يثيرها حامد ، ويجد انها فرصة سانحة ليستتب الهدوء في ادارته .

يصعق حامد ، وتتوتر اعصابه ، ويتلعثم في الحديث ، وتتناقض اقواله . يكثر الحديث عن كفاءته ، وعن عقود العمل التي تنتظره ؛ وعن اصراره على الاستقالة برغم محاولة المدير معه كي يعدل عنها . يبتني له الخيال الخصيب قصورا شاهقة من المجد والجدارة ، لكنها حالة نفسية لم تدم سوى يومين ، ثم يفيق الى واقعه ، فيبوح برغبته في العدول عن الاستقالة !

يقول له احمد :

— لكن سيادة المدير وافق عليها .

ويقول له محمود :

— انها بناء على طلبك .

ولاول مرة يشترك عم بركة في الحديث هامسا :

— والنبي تسعى يا استاذ احمد وتلغي الاستقالة .

ويتحدث حامد عن معارضة زوجته فكرة السفر الى الخارج ؛ ويلمح بوضوح بان اصراره على السفر سيسبب انفصاله عن زوجته ، وقد يضطر الى تطليقها ، وهذا ما يشفق على زوجته منه ، لا سيما انها تحبه.

يكرر عم بركة رجاءه ، فيقول له احمد :

— لا استطيع ان احدث المدير في امر يخص غيري .

يحس حامد بالدائرة تكاد تضيق به ، وبانه على وشك ان يفقد مستقبله ، ولا يجد ما يقتات به ، فيهرع الى المدير .. يتوسل اليه كي يلغي الاستقالة ، ويضطر الى البكاء ، وما اكثر حالات بكائه !..

وبعد لأي ، يسحب المدير طلب الاستقالة ، ويلغيها .

يهدأ حامد ، كان الروح اعيدت الى جسده ، ثم يعود الى مكتبه مصمما على ان يبدأ حياة جديدة .

وحين يهم بدخول المكتب ، يتناهى الى اذنيه صوت عم بركة :

— والنبي الاستاذ حامد غلبان .. غلبان جدا ..

تصدمه كلمات عم بركة ، يتاخر قليلا حتى ينتهي حديثه مع احمد ، ثم يدخل الحجرة قائلا :

— تصوروا ، طلبني المدير ، وشيد بكفاءتي ، والغى الاستقالة .. قال ان مصلحة العمل تستدعي ذلك .. « انت شايل عني حملا كبيرا .. كيف تتركنا ؟ . آنا وافقت في البداية لاجل خاطرك ، لكن مصلحة العمل تهمنا جميعا » .

يخرج عم بركة ، متحاشيا النظر اليه ، لكن اذنيه تصغيان في هذه المرة الى كلماته بعناية ، ثم .. يمصمص شفتيه !

القاهرة — حسني سيد لبيب

انتظار للحلم المفقود

يـــوما
حين التقط العصفور الحبة في فمه
قد ظن ... اتاه في مغنمه
فتغنى انشدت الالوان لحونا في مرسمه
غزل الخيمات الوردية من انجمه
لكن السيـــل اتى
آه نزف العصفور الحلم الدافيء من دمه

* * *

وعبرت جريحا بوابـــة احزاني
على الم ثقبـــا من ضوء
يتطاول في بركاني
بحثا عن مطهر انسان
عن حب يعشق في قيثار
ليسيل الزهر عناقيدا ...
تختال على ثغر الاوتار

* * *

آه ... وانا خلف الاسوار ...
الملم اشلاء الازهار
اترقب انسام الظل
تتثاقل فوق الهدب حروف الاشعار
اصغيـــت ....
....
فسمعت اللحن خريرا مبتور النبض
والحب باعطاف القلب
امواج جراح تهمي في نهر الرفض
فصرخت صرخت صرخت
هل يوما يأتينا ...
كي يسكب حبا في الاقداح
ويعلمنا ان نعزف لحن غدير
يتهامس ضوءا مسموعا من ثغر الريح
يتسلق فوق جذور الصمت
ليعلق في هدب المصباح

فاسائله
هل تتمطى امواج النهر
الى اعماق جريح
ليضيء الحرف على وجه الاقمار
اصغيت ....
....
....
فسمعت نداء قديسا مثل الطيف
يهمس
ما عاد الصخر تراوده اطياف متى
ان بحت فصدري يحمل سيفي
وبحرفي
بركان سنا
يتخافت همس الصوت
يتخافت ...
يرحل للموت
آه صليت
كالنسمة في ثغر الافعى
فنيـــت
كالشاة الفاقدة المرعى
....
....
اه نحن الانسان الراحل للغربه
ظل يهمي في ارض خربه
نتساءل عل الاحرف تمحو اشباح الرهبه

* * *

آه يا شمع الاحداق المرتجفه
ساظل هنا خلف الشرفه
انتظر
ان يعبر نهر الثلج شعاعا يستمر

القاهرة — عبد الشافي داود

مقامات الهمذاني

بقلم احمد حسين الطماوي

* * *

مقامات الهمذاني من ثمرات الادب القديم التي ما زالت تقرأ ، وتؤثر في الاذواق ، وتستهدي نتاجها للافهام ، لانها مزينة بلامعات الافكار ، مزودة برائعات المعاني ، ولاننا نراها في زيها العام مدعمة بالامثال العربية الحية ؛ مطعمة بالصور البيانية السامقة . وان اي ادب يغني ويكمل بوجود الوان كثيرة فيه ، وقد كان لظهور هذا الجنس الادبي اكثر الاثر واعمقه في ادبنا العربي في وقت كانت القصة والمسرحية لم تعرفها الاداب العربية . وان المقامات كانت تؤدي المهمة التي تؤديها القصة المعاصرة من نقد اجتماعي اصلاحي وتسلية وتعليم .

وقد بذل ابن دريد جهدا في محاولة غير ناضجة لايجاد هذا اللون الادبي ، ومن ثم يعد بديع الزمان هو موجد هذا الفن ورائع رايته ، الذي جاء اسلوبه فيها مشرقا الى ابعد الحدود ، حيث نري افكاره غميبة في طراوة العبارة ، وطرافة الاسجاع ، ولكننا نرى بين الحين والحين بعض المعاني غائمة حيث تتوارى خلف الفاظ غامضة وتدجو في متاهات هذه المفردات الصعبة فتبدو ظليلة معتمة ، ولكن الكثير من افكاره وصوره شفيفة واضحة ، ومشرقة ضاحية ، متسامية على الاسلوب العادي المهترىء ؛ وتتدفق معانيه في جمل قصيرة ، وتترقرق في عبارات دقيقة التفاصيل يلامحها العقل منذ البدء في القراءة ، فنشعر بانسلال موسيقى اسلوبه الى نفوسنا حلوة طروبة الجرس ، حيث لا نجد عباراته عارية من ثيابها الموشاة ، الى جانب تصريف المفردات وانتشار الاسجاع وتشقيق الجناس .

وراوية هذه المقامات هو الهمذاني نفسه مكنيا باسم ابي الفتح الاسكندري وهو فصيح اللسان يعرف كيف يتحايل ويتخلص من المواقف الحرجة ، ويهجو فيها العادات السيئة ، ويذم التقاليد الجامدة ، واضعا يده على اشياء مفسدة للمروءة ، مزراة للاخلاق ، فهو يتحدث حديث رجل يرى نفسه في مجتمع اختلفت موازينه وانتكست اخلاقه ، فنرى تصويره للاستجداء والمتشردين الذين ساروا متوجعين في موحش دروب الحياة ، حيث ضامهم الاغنياء المنعمين ، وصور القضاة الفاسدين وليس ادل على سوء الحالة الاجتماعية في تلك الفترة من ان نرى كاتبا كالثعالبي يخصص كتابا يتحدث فيه عن رجال الناس والشعراء يسميه « يتيمة الدهر » فالهمذاني او ابو الفتح الاسكندري ينظر الى الحياة الاجتماعية نظرة الناقد الساخر الزاري ، ونراه يردد كلمات حافزة تنفث في الناس روح القوة والعزم ، واساليب مجددة لمعان كثيرة في حياتهم . فالمقامات تصوير اجتماعي من ناحية ، وتصوير نفسي من ناحية اخرى ، فنراه في كثير من الاحيان يتحدث عن المشكلة ثم يتركها مبينا اثارها في النفس فتنتقل في عباراته بين ايماض الامل ، وارماض الالم في النفس الانسانية موضحا كيف ان المآسي الحازبة تلم بها وتجعلها تدور في دوامتها، وكيف ان الصعاب الطارئة تشقيها وتعمل على اغراقها في طوفانها .

ومقامات البديع تشتمل على موضوعات كثيرة فمنها المقامات الادبية كالمقامة « القريضية والتي يبدي رايه فيها في امرىء القيس والنابغة وزهير وطرفة ونعرض هنا رايه في جرير والفرزدق لنرى الى اي حد هو صائب في احكامه على هؤلاء : « جرير ارق شعرا ، واغزر غزرا ، والفرزدق امتن صخرا ، واكثر فخرا ، وجرير اوجع هجوا واشرف يوما ، والفرزدق اكثر روما ، واكرم قوما وجرير اذا نسب اشجى ، واذا ثلب اردى ، واذا مدح اسنى ، والفرزدق اذا افتخر اجزى ، واذا احتقر ازرى، واذا وصف اوفى » .

ومن المقامات الادبية الاخرى مقامته الجاحظية والتي ينتقد فيها الجاحظ ويقول « البليغ من لم يقصر نظمه عن نثره ، ولم يزر كلامه بشعره ، فهل ترون للجاحظ شعرا رائعا » وانه ليس ضروريا ان يكون الكاتب ناثرا مجيدا وشاعرا فخلا ، فقد ينجح في احدهما ويخفق في الاخر واحيانا يقصر الناثر في الشعر في حين يتبوأ منزلة كبيرة في النثر ، وان هذا لا يخفض من قيمته . ولا يثبت جهالته . وقد عاب ايضا على الجاحظ انه « بعيد الاشارات ، قليل الاستعارات قريب العبارات ، منقاد لعريان الكلام يستعمله ، نفور من معتاصه يهمله ، فهل سمعتم له لفظة مصنوعة ، او كلمة غير مسموعة » وقد يخلو النثر من كل القيود التي وضعها له البديع ويكون النثر بعد ذلك جيدا . وقد رد الشيخ محمد عبده على بديع الزمان في حاشية على المقامات قال : « وهذه الاوصاف التي يعدها كانها من مناقص كلام الجاحظ هي اعلى مزايا الكلام عند اهله وهي التي ترفع مقامه على غيره ، وهذا المذهب الذي سلكه الجاحظ هو مذهب رجال البلاغة الاولين ، ومجال فرسانها السابقين . اما المصنوعات فهي من احداث الموضوعات لا ينظر اليها الا صبية هذه الصناعة » .

وهكذا نجد الصور الادبية الى جوار الصور الاجتماعية والصور النفسية بل اذا مضينا نجد الصور الوعظية متمثلة في مقامته الوعظية وهي عبارة عن قصيدة

شعرية طويلة تتخلل ابياتها شروح عليها ، وتعقيبات على ما جاء فيها . فهي قصيدة تنتشر فيها الشروح وليست مقامة تتخللها الابيات وهي كقصائد الزهد التي نجد مثلها عند سفيان بن عيينه ، وسفيان الثوري ، وعبدالله بن المبارك ومحمد بن كناسه ومحمود الوراق وابي العتاهية ومالك بن دينار الذي اكثر الحديث عن الموت وبديع الزمان يقول ما يقوله اي زاهد متنسك يذكر الناس بالموت دائما ، ويزجر الخلق ويصرفهم عن التعلق بنعيم الحياة الزائل ، والابتعاد عن طريق الغواية وبتر الوسائل الموصلة اليها ، حاضا على الزهد فيقول :

وانت على الدنيا مكب منافس ... لخطابها فيها حريص مكاثر

على خطر تمشي وتصبح لاهيا ... اتدري بماذا لو عقلت تخاطر

وان امرأ يسعى لدنياه جاهدا ... ويذهل عن آخراه لا شك خاسر

ويقول مشيرا الى الامم الخالية والملوك الفانية :

فأصبحوا رميما في التراب واقفرت ... مجالس منهم عطلت ومقاصر

وقد صاغ القصيدة صياغة بديعة ورغم انها قصيدة وعظية الا ان الفن الشعري فيها يوقف القارىء كثيرا وهذا البيت :

احاطت به احزانه وهمومه ... وابلس (1) لما اعجزته المعاذر

يصور النفس البشرية وقد افترسها الالم ، وصدمها الواقع ، واقعدها اليأس عن كل حيلة ومحاولة. وكلمة « احاطت » في البيت ادت له معنى ملائما وابرزته في شكل فني واختياره للالفاظ في ابياته يدل على الذوق الدقيق المتبصر .

كما نجد فيها المقامات الفكاهية مثل المقامة الساسانية والمضيرية فالاسلوب الفكاهي الخفيف يغشى هذه المقامات فيجعل النفس منشرحة والوجه بارقا ومثل هذا هذه الاشعار :

يا فاضلا قد تبدى ... كأنه الفضل قدا

قد اشتهى اللحم ضرسي ... فاجلده بالخبز جلدا

وامنن علي بشيء ... واجعله للوقت نقدا

اطلق من اليد خصرا ... واحلل من الكيس عقدا

واضمم يديك لاجلي ... الى جناحك عمدا

وانه شيء بديع أن يعرض الكاتب بعض الامور والموضوعات في القوالب الفكاهية المحببة للروح الخفيفة على النفس كما ان القراء يقبلون عليها حيث تستخفهم الفكاهة فترف الابتسامات على وجوههم .

ومن المقامات التي هي اقرب الى الفن القصصي مقالته الاسدية ومقامته البشرية والتي يستهلها بكلمة « كان » فتحس انه يبدا في سرد حكاية ونجد مقامات المدح وهي التي مدح فيها خلف بن احمد مثل المقامة الملوكية والنيسابورية والخلفية ويقول الدكتور شوقي ضيف في كتابه عن فن « المقامة » : « ان النثر اخذ يزاحم الشعر ، فالهمذاني فيها يصوغ المدح نثرا . وكنا نصرف حتى عصر البديع ان الشعر لسان المديح ، وان المادحين

(1) ابلس : يئس .

لا يمدحون بغيره ، واليوم انقلبت الاية . فقد اصبح المدح يقال نثرا كما يقال شعرا » . وانها ملاحظة طيبة . ولكن لم يشع النثر في المديح ويبدو ان المدح لا يصلح له الا الشعر وتشيع في المقامات الاقوال التي تصيب الامور في صميمها وتستوقفنا عندها لروعتها وصحتها ومن هذا تقسيمه الناس يقول : « الناس رجلان : عالم يرعى ومتعلم يسعى ، والباقون هامل نعام وراتع انعام » وايضا قوله في العلم « ان العلم احسن على علاته والجهل اقبح على حالاته » وقوله ايضا :

الا لا ولكنا نغر نفوسنا ... وتشغلها اللذات عما نحاذر

وكيف يلذ العيش من هو موقن ... بموقف عدل حيث تبلى السرائر

ومن هذا العرض السريع نتعرف على ان المقامات تحوي العديد من الصور والموضوعات ومن هنا يجب الوقوف عندها وقراءتها . وقد امتدح فن المقامة واثنى عليه القلقشندي مؤلف صبح الاعشى « ج ١٤ ص ١١٠ فقال فيها هي غاية من البلاغة ، وعلو الرتبة في الصنعة» في حين ان ابن الاثير في « المثل السائر » ينتقص منها ويزدريها ، ويرى بعض النقاد ودارسو الأدب المقارن ان هذا اللون من الادب اثر في الادب الاوروبي ويوجد الدكتور محمد غنيمي هلال في كتابه « الادب المقارن » صلات ووجوه شبه قوية بين قصص الشطار Picaresca الاسبانية ثم انتقل التأثير من الادب الاسباني الى سواه من الاداب الاوروبية .

ويرى الكثير من النقاد (2) أن بديع الزمان متأثر في هذا الفن بشاعرين واقعين كانت حرفتيهما الكدية وهما « ابو دلف الينبوعي مسعر بن مهلهل » « الاحنف العكبري » وقد اورد الثعالبي في كتابه « يتيمة الدهر » فصلين عنهما ويبين فيهما صناعة الكدية والفاظها التي تستعمل لهذا الغرض . وكان كليهما يتجول ويحتال لكي يكسب قوته ويحصل على المال ووسائله في هذا حصيلته الوافرة من فقه ولغة ومواعظ دينية ، ويقال ان ابا دلف كان رفيقا ومحببا الى مجلس الهمذاني وكان يردد نتاجه الشعري وقد اورد بيتي ابي دلف في المقامة القريضية وهما :

ويحك هذا الزمان زور ... فلا يغرنك الغرور

لا تلتزم حالة ولكن ... در بالليالي كما تدور

وفي هذا المقام يجب ان نشير الى ان «مارون عبود» في كتابه عن « بديع الزمان الهمذاني » اورد هذين البيتين ونسبهما الى الهمذاني، والواقع انهما لابي دلف كما ذكرنا وكما هو موجود في يتيمة الثعالبي .

اما مؤلف هذه المقامات فهو احمد بن الحسين الملقب ببديع الزمان وقد ولد في همذان سنة ٣٥٨ هـ وفي

(2) د. شوقي ضيف في كتابه « المقامة » ، د. غنيمي هلال في كتابه « الادب المقارن » .

فقدت هواي

يـا رفـاقي انـا فقدت هـوايا … راح مني الهوى .. وعـاد اسايـا
راح .. لم ادر كيف راح .. واني … وتلفت .. مـا وجدت منايـا
واستكانـت بجانبي خفقـات … كانت اللحـن رددته حنايـا
ثم غـارت ، مع الرؤى ، قطـرات … في زوايـا ، بمقلتي ، زوايـا
واستوى الليـل والنهار ظلامـا … تهت فيـه ، وتاه فيـه ضحايـا
يا رفـاقي ، وحـار مني طـرف … في صحـارى ، وحـار معه ندايـا
في عروقي دمي يجـف رويـدا … مـذ غفـا عازفي ، رفيق غنايـا
يا رفـاقي ، وجـف كل معـين … للرؤى .. للمنى ، لكـل حلايـا
ليته ، ما انبرى ، بصدري صـوت … فيـه بعض الحياة ، بعض عطايـا
واصلوا السـير ، يا رفاقي ، دعوني … دب في الاسى ، وشـل قـوايا
ها توقفت .. قد اضعت رجائي … ها هنا سمرت جميـع خطايـا
ذلك الليـل ما انثنيت انـاجي … خبـت يا ليل .. اين منـك رؤايا
ايـن بـدر رمى دجاك بنـور … كان مني .. وضـاء منـك عشايـا
خيـم الصمت في دجـاي مريـرا … وانبرى الصمت يستحث بكايـا

اميرة الحوماني

رسالة من رسائله الى الفضل بن احمد الاسفرائيني « اني عبد الشيخ واسمي احمد وهمذان المولد ، وتغلب المورد ، ومضر المحتد » فهو سليل اسرة عربية . وقد تغذى على دروس استاذه ابي الحسن احمد بن فارس ثم غادر الهمذان الى الري فورد حضرة الصاحب بن عباد فتزود من ثمارها وحسن اثارها . ويقول ياقوت في « معجم الادباء » انه « كان يترجم ما يقترح عليه من الابيات الفارسية المشتملة على المعاني الغريبة بالابيات العربية فيجمع فيها بين الايداع والاسراع الى عجائب كثيرة لا تحصى ولطائف تطول ان تستقصى » وغادر الري الى جرجان فخالط الكثير من علماء الفرق الدينية ثم انتقل الى نيسابور عام ٣٩٢ هـ وهناك املى مقاماته ويقال انها كانت اربعمائة ويؤيد هذا الحصري فيقول انه عارض ابن دريد « باربعمائة مقامة في الكدية » تذوب ظرفا وتقطر حسنا اما الان فهي اقل من هذا بكثير . وفي نيسابور نشبت بينه وبين ابي بكر الخوارزمي المعركة الادبية الشهيرة والتي كانت سببا في شهرة بديع الزمان وذيوع صيته ، وقد تجنى فيها على الخوارزمي ورماه بشتائم قاسية وبعدها جاب خراسان وسجستان حيث كتب عدة مقامات في حاكمها خلف بن احمد وتنقل بين غزنة وكرمان وعرض شعره ونثره ، وكسب منهما وكون ثروة واخيرا استقر في هراة وتزوج منها وامتلك الضياع. وقد قال عنه ابو سعيد بن دوست الذي جمع رسائله :

« وكان ابو الفضل طلق البديهة ، سمح القريحة ، شديد العارضة ، زلال الكلام عذبه فصيح اللسان عذبه ، وان دعا الكتابة اجابته عقودا ، واعطته قيادتها صفوا ، والقوافي اتته ملء الصدور على التوافي ، ثم كانت له طرق في الفروع هو اقترعها ، وسنن في المعاني هو اخترعها » . ومات سنة ٣٩٨ هـ وقيل مات مسموما وقيل ايضا مات بداء السكتة ودفن حيا وانه افاق في قبره وسمع صوته بالليل ونبش فوجد انه قد مات اما اثاره الادبية فهي عبارة عن مجموعة من الرسائل الادبية وديوان شعر يشتمل على قصائد في المديح ومراثي كما يشتمل على قصائد كان يصوغها بالعربية والفارسية معا ويضاف الى ذلك مقاماته التي عرضنا لها ، وهي مجهود باق ، وتراث اثمرت ثمراته واتت أكلها : وجهد هائل صالح للحياة ، عائد على الناس بالفائدة : وعلى الادب بالثراء والابتكار .

القاهرة

احمد حسين الطماوي



احمد خميس

شاعر الروابي الخضر احمد خميس

بقلم محمد محمود رضوان

* * *

ينتمي شاعر الروابي الخضر احمد خميس الى مدرسة الرقة العاطفية في شعرنا العربي المعاصر ؛ وهي المدرسة التي تضم بين اعطافها اعلامها الكبار : ابراهيم ناجي وعلي محمود طه وصالح جودت والهمشري واحمد فتحي واحمد عبد المجيد وكامل الشناوي وغيرهم من اساطين شعرنا العاطفي الرومانسي الغنائي . واحمد خميس شاعر رومانسي غنائي حالم ، وشعره يفصح عن محب عاشق متفتح لروحانية الطبيعة ومباهج الحياة وافراحها ، كما يفصح عن شاعر رومانسي حالم يسبح في بحار من الرؤى والاطياف والاحلام بحيث نستطيع العثور على مفتاح شخصيته في كلمة واحدة هي : حب الجمال !

ان احمد خميس شاعر مبدع رقيق يؤمن بالحب ويولع بالجمال .. وقد اغنى قاموسنا الشعري بصور جديدة مبتكرة في قاموس العاطفة والوجدان ؛ وقد تميزت قصائده بقوة العاطفة وحرارتها مما منح شعره الصدق الفني والحرارة والجمال .

خليفة الملاح التائه : نشأ احمد خميس منذ نعومة اظفاره يعشق القراءة والاطلاع .. وكان رابع اخوته (عبدالله ومحمد وعلي) وقد وجد في مكتبة اخيه عبدالله زادا ثقافيا طيبا ، فقرأ منها امهات الكتب العربية وشدته دواوين البحتري والمتنبي وشوقي وعاش معها لحظات سعيدة وحفظ مئات الابيات منها .

واحمد خميس من مواليد ١٣ يناير عام ١٩٢٥ بالقاهرة وقد حصل على ليسانس اداب قسم انجليزي من جامعة القاهرة وفي نهاية عام ١٩٥٤ انتقل للاسكندرية من القاهرة حيث اشترك في تاسيس اذاعتها . وقد تزوج شاعرنا من رفيقة عمره فكانت رفيقة الدرب حيث وجد فيها الانسانة المثقفة الواسعة الافق فكانت من اكبر عوامل استقراره النفسي والوجداني والفني .

وقد سافر شاعرنا الى المانيا للعمل باذاعتها عام ١٩٦٧ وظل بها حتى عام ١٩٧٣ حيث عاد للقاهرة بعد معارك اكتوبر المجيدة التي شدته وايقظت كل احاسيسه، فكتب قصيدة من وحي ذلك اليوم المجيد بث فيها كل مشاعره واحاسيسه وعواطفه نحو مصر وتاريخها وامجادها وحضارتها المجيدة ..

ولكن ما قصة شاعرنا مع « الملاح التائه » ، علي محمود طه ؟

في مطالع شباب احمد خميس قرأ دواوين « الملاح التائه » ، ووقف عنده طويلا .. استوعبها واستهوته اول ما استهوته رقته العاطفية واجواءه الشعرية الحالمة وهيامه في بحار الحب والجمال فضلا عن رقة موسيقاه وحلاوة جرسه ورهافة روحه .

وعاش احمد خميس في اجواء الملاح التائه الرومانسية الحالمة، وعرفه عن قرب في سنواته الاخيرة وتأثر به ، ثم لما بدأ يكتب محاولاته الشعرية الاولى وهو لم تتجاوز العشرين من عمره في منتصف الاربعينات بدأت تظهر ملامح شاعريته الاصيلة وسماته الروحية والذوقية والوجدانية .

لقد بدا انه اكثر قربا من « الملاح التائه » في اجوائه الشعرية واحتفاله بالموسيقا ورقته العاطفية ورومانسيته الحالمة وهيامه في بحار الحب والجمال سعيا وراء سحر المجهول مما جعله يعد بحق خليفة « للملاح التائه » .

ان احمد خميس وعلي محمود طه يشكلان مدرسة خاصة في شعرنا العربي المعاصر لها سماتها المتفردة وخصائصها المتميزة وهي المدرسة الرومانسية العاطفية الطروبة ، اذ ان كلا منهما يعشق الحسن ويقدس الجمال وكل منهما ظامىء لمباهج الحياة وافراحها . ينهلان منها ويسبحان في بحار الحب واجواء الجمال في شاعرية حالمة ورومانسية هامسة رقيقة .

ان المثال الذي يمثل اتجاهات علي محمود طه الذوقية والنفسية والروحية ، قصيدته عن « ليالي

كليوباترا » تلك الفاتنة الساحرة « فاتنة الدنيا وحسناء الزمان » التي التقى معها في ليلة حب على صفحة النيل في زورق من صنع احلام الشباب وتغنى شاطئا النيل حولهما وغردت الضفاف الخضر لهذين العاشقين المفتونين السابحين في نهر حب ونغم :

كليوباترا ... اي حلم من لياليك الحسان
طاف بالموج فغنى وتغنى الشاطئان
وهفا كل فؤاد وشدا كل لسان
هذه فاتنة الدنيا وحسناء الزمان

ويصبح الجو المحيط بالعاشقين المفتونين اكثر شاعرية ورومانسية ، فالموج والشاطئان يتغنيان ، والاشواق تغني حولهما ، والقمر الفضي يباركهما ، فيسبحان في بحر من النور والنغم والهوى :

ليلنا ... واشواق تغني حولنا
وشراع سابح في النور يرعى ظلنا
كان في الليل ... وافاقوا قبلنا
ليتهم قد عرفوا الحب فباتوا مثلنا
كلما غرد ... شربوا .. لحنا
يا حبيبي ، كل ملقى الليل روح يتغنى
هات .... انها ليلة حبي
آه لو شاركتني افراح قلبي

وعند شاعر الروابي الخضر ، نجد نفس الاجواء الحالمة والصور الملونة الرقيقة حيث نجد الجو الرومانسي الحالم الطروب ، فيرسم لنا صورة الشاعر وملهمته في زورق على النيل في مناجاة حالمة وقد باركتها الطبيعة الفتانة ، وهي لوحة شعرية قريبة من اجواء الملاح التائه ولياليه في بحار الحب والجمال : يقول احمد خميس في قصيدته « الشروق » :

يا حبيبي قد بدا الشاطىء في نهر الخيال
وترامى الموج مشتاقا الى صدر الرمال
وتغنى الزهر للفجر باسرار الليالي

مرت الانسام تلهو بالشراع الخافق   ضاحك الانوار مطلولا بانداء الصباح
طيع المجداف منسابا كحلم شيق   هو رؤيا لحبيب وعناق ومراح
انت نشوان على صدري تميل   وانا السابح في الحلم الجميل

ثم يناجي محبوبه في ظلال الطبيعة الحالمة فيقول :

يا حبيبي .. لم يعد في الكون سوانا
والازاهير مع الطير تغنت بهوانا
والروابي خلدتها لثمة النور حنانا

اشرف الروح على فجر من الحب السعيد
في شعاع راقص القلب على نور سناه
وتغنى البلبل الظمآن للصبح الوليد
وشربنا ... قياما على ... الشفاه
انت نشوان على صدري تميل   وانا السابح في الحلم الجميل

الشاعر الرومانسي : ينتمي شاعرنا الى المدرسة الرومانسية التي وجد فيها الشاعر حرية الوجدان والقلب بنشوته وحرارته وانفعالاته . فالرومانسية تعد ملجا وملاذا للشعراء الحالمين يهربون اليها من هجير الحياة ومن مرارة الواقع الذي يعانون منه ويكابدونه .

واحمد خميس الرومانسي مرهف الاحساس ، رقيق المشاعر ، سريع التأثر ، نزاع الي الحرية ، تواق الى الوحدة ، محب للطبيعة ، يستوحيها الهامه ، ويصف من خلالها مشاعره وقد وجد احمد خميس في ظلال الطبيعة خاصة نهر النيل والبحر والروابي الخضر الملجأ والسلوى من احزانه الروحية واحساسه الحاد بالاقتراب الروحي سواء كان منفردا بنفسه او بصحبة عروس الهامه أو عروس شعره في عالم الخيال والاساطير التي تبهج روحه الظمأى ، وتلهمه اجمل اغاريد الحب والجمال واعذبها .

وقد سجل لنا شاعرنا ارق احاسيسه واصدق خفقات قلبه انفعالا بلحظات السعادة الروحية والري النفسي مع سحر الطبيعة وليالي النجوى الوصال فجاء شعره انعكاسا صادقا وامينا لما احس به وتذوقه في ظلال الطبيعة الحالمة ! .

ان احمد خميس شاعر رومانسي حالم طروب .

فشاعرنا خصب الخيال ، يحلق بعيدا عن واقع الحياة وهجيرها الى واحات الحب والسحر والجمال ، وهو بعيد عن الواقع في تصويره وتعبيره وتفكيره ، فيطلق احيانا العنان لخياله ، فيصور لنا اجواء حالمة هامسة لمحبين يتناجيان وسط جمال الطبيعة وسحرها والكون يبارك حبهما وكأنهما وسط مكان ناء بعيد عن ارض الواقع ، وعن البشر كافة حيث تدور .. وتلك النجوى، ولنطالع بعض هذا الخيال المجنح وهو يصف لنا ليلة حب حالمة في قصيدته « همس الغروب » ، التي عبر فيها عن عواطفه الوجدانية تعبيرا مليئا بالصور والايحاءات الخصبة الفنية .

يصور احمد خميس ذلك الجو الحالم الملون وهمسات المحبين عند الغروب على صفحة الماء ، في زورق حالم : فيقول على لسان محبوبته :

قلت لي والشمس تلقى فوق خديك رداها
وتحيل الصخر والماء قلوبا وشفاها
وتميد الطير مسحورا على خفق سناها

قلت لي والشفق الوردي في روعته   آه لو يغفل هذا الكون من دورته
ونرى الدنيا بعيني طائرين
اطلقا فيها جناحي عاشقين
فاغنى وتغنى لك عيني

وبعينيك من الشوق فتون   وبقلبي منك سحر وجنون

والحب الرومانسي لا ينشد اللذة الحسية ، فهو يقنع باللقاء العابر والمناجاة الحالمة في ظلال الطبيعة المشرقة ، فيصور لنا هذه النجوى حيث تشاركهما

الطبيعة افراح القلب وبهجة الروح :

واحتوانا زورق يختال فى زرقـة مـاء
الهـوى ملاحـه الشادي بانغـام الرجاء
فيـه ما التمسه ربات الصبا ذات مـاء

من ازاهـير وفيشار ... عاطر ... من ... روح الشباب الثائر

فاحاطتــك عـلى رفـق ذراعي
...... عـلى همـس الشـراع
وتبديــت كحـلم او شعـاع

وبعينيك من الشـوق فتـون وبقلبي منـك سحر وجنـون

وتبدو ابيقورية شاعرنا وروحه المبتهجة الطروبة المتفتحة للحب والجمال ، في تلك الصور الشعرية الحارة المتدفقة التي يحث فيها على .. قبل الفراق ، ويخشى ان تضيع ساعات النجوى والحـب فينادي الزمن ان يتمهل ليقف عند تلك الساعات ، وليظل ليل الحـب سرمديا لا يلوح له فجر ، فيبدد ساعات الحب والهنـاء والسعادة :

ثم عدنـا للضفاف الخضر واللهو المتاح
بين عشـاق اسارى وأباريـق ....
كل .... غفلـة تقصيك عن ذكر الصباح

ساعة شفـت لها الاضـواء واستحى القمر

صحت بالغيـب تمهل وترفـق يا قـدر

يا حبيبي مـا على الدنيـا سوانـا
.... الليلـة من .... هوانـا
وادع بالايـام آن ترعى صبانـا

وبعينيك من الشـوق فتـون وبقلبي منـك سحر وجنـون

ان احمد خميس محب للطبيعة ، يستوحيها الهامه ، ويصف من خلالها مشاعره ورغم دعوة الشاعر للحب والانطلاق وانتهاب لحظات السعادة الروحية والحب الا اننا نجده – كعادة الرومانسيين – يحلو له التغني الحزين الذي يدغدغ حواس المستمع ، ويحمله الى دنيا من شجن لطيف ولحن اليف ، دون ان يبعث فيه اسى او يدفع به الى الاشفاق على الشاعر الاسوان .

ان شاعرنا يستعذب الشجن ، ويحلق في جـو المعاناة . وتروعه وتفزعه لحظـات الفرقة والرحيـل ، فيتاسى ببقايا ليالي الحب . وحطام .. . ليرضي روحه الظمأى وقلبه الحزين :

كل ما فى الليل ولى وخبـا الضوء العليل
وخيـالات المنى راحت مع الفجر تميل
ومضى العشـاق فى اعينهم حلم جميـل

وخلا الكون بدنياه على روحي وقلبي وبقايا لثمـة فى ..... قربي

فتذكـرت احاديـث الغـروب
وتشـهى ساعـدي خصر حبيـبي
غـير همـس طـاف بالشط القريب

ان خصائص المدرسة الرومانسيـة من حيوية الطبيعة والتفاعل بين الذات والموضوع ، والكشف عـن العنصر الاسطوري في الطبيعة . واستخدام الرمز والمجاز في هذا الكشف فضلا عن الذاتية والولوع بالوحدة وعبادة الجمال متمثلة في شعر احمد خميس أصدق تمثيـل واصدقه فهو بحق من أعلام تلك المدرسة الخالدة الاصيلة في شعرنا العربي المعاصر :

الشاعر التصويري : ان الصورة الشعرية تمنح الشعر الجمال والاصالة ولقد اجاد احمـد خميس استخدام الصورة الشعرية في قصائده . فالتصوير هو الاداة المفضلة لديه . ولقد ابرزت الطبيعة الحية الساحرة الجانب التصويري من شاعريته . ان التصوير عند احمد خميس تصوير حي منتزع من عالم الاحياء ، وهو تصوير باللون وتصوير بالحركة وتصوير بالتخيل ، كما انـه تصوير بالنغم والموسيقا الناعمة الهامسة .

واحمد خميس شاعر مصور يخلع على صـوره الشعرية ملامح من احاسيسـه الروحية والذوقيـة والنفسية ، فتجيء تلك الصورة قطعة من روحه ونفسه ، مما يمنحها الحرارة والصدق الفني والجمال .

في هذه اللوحة التصويرية الجميلة نجد جوا ملونا حالما ، التقطه شاعرنا من الطبيعة الجميلة وصور مـن خلاله مشاعره العاطفية وحبه للجمال مع عروس احلامه :

يا صحابي هـذه النباة من فرح السماء
طاف الروض نداهـا ، فتغنى للنـداء
وافاق الزهـر فى احضانـه ، حلو الرداء
ورنـا الكون واصغى ، وحلا همس اللقاء

وسرى بالضفة الخضراء لحن شاعري ساحر النبرة ، رفاف ، رقيق ، شاعري ،
ياخيـا الاحـلام هيـه .... واسكـب الاشواق فى كاس المنى

فالهـوى والشعـر والنجوى لنـا

ان في شعر احمد خميس التصويري ظاهرتـين ملموستين هما : الموسيقا والتشخيص .

ألموسيقا التصويرية التي تصاحب المشهد التعبيري ، والتشخيص الذي يجعل من مظاهر الطبيعة الصامتـة كائنات حية نابضة بالحرارة والحيـاة تشاركه افراح روحه وخفقات قلبه المفتون مع عرائس اشعاره .

اننا في قصيدته « خمرة الربيع » التي ذكرناهـا نراه يشخص الطبيعة ويرسم لنا لوحات تمثل الطبيعـة تشاركه سعادته الروحية مع ملهمته . ان هذه الصـور الشعرية تمثل انفعالات الشاعر واحاسيسه وعواطفه الحارة المتدفقة ، وقد وفق ان ينقل لنا الجو الحـالم بكل اطيافه وظلاله والوانه واصواته .

إن احمد خميس في صوره الشعرية يستخـدم الصور الحية مما يضفي على شعره الحرارة والحيـاة والصدق الفني ، ويرجع هذا الى انه دائما يلجـأ الى الطبيعة الحية يستوحيها ويستلهمها ..

وادواته التي يستخدمها اللفظة الحية ، والموسيقا الناعمة ، والضوء واللون والصوت ، ان التلوين في الشعر

احمد خميس يضفي عليه جمالا وحركة . والصوت يضفي عليه نبضا وحرارة فهو فنان يجيد توزيع الظل والظلام والضوء والالق والسنا ولكننا نلحظ ظاهرة بارزة في شعره وهو احتواؤه على قسط كبير من الاضواء ، حيث نجد الفاظ « السنا والنور والالق » .

في هذه اللوحة يضفي حياة وحركة بتشخيصه لمظاهر الطبيعة ، حيث يجعل الفجر يصحو والروض يتحرك ، والربيع يضحك ويغني فضلا عن الموسيقا الحالمة الرقيقة ، وهو يناجي ملهمته :

بسمة العمر : صحا الفجر كحلم عاطر
واحتوى الروض شعاع من جناحي طائر
ينثر الفتنة والشعر وانس الحائر
اخت روحي : مثل هذا الحسن لم اسمع انا
فيه قيثار وعطر شباب وجنى
فيه ما يلتن من زهر وجنام
وربيع جناحك البهجة سامي
وانا فيه اغني لابتسامي

وهو يجعل الفجر انسانا يصحو متألقا والزهور تهمس وتناجي :

وصحي الفجر وفي المهد رفاف العبير
وسرت في بسمة الاشراق همسات الزهور
وانثنينا لوداع وافترقنا لمسير

وفي هذه الابيات تبرز رقته وعذوبته واحتواء شعره على قسط وافر من النغم والموسيقا فضلا عن توافق الكلمات وانسجامها مما يجعله خليفة « الملاح التائه » في الشعر التصويري :

وغنا اللحن فصمتنا الاماني الغافية
واحتوتنا نشوة سكرى .. ودنيا شادية
بهجة تهتف للحب واخرى حانية
يا ربيب العطر يا روح السنا طابت الليلة ....
.... عن ثنايا شفتين ... لثمة منك ومني شفتين
ثم هات .. فانا سمع واصداء رعين

ان احمد خميس يجيد التصوير الشعري بفن واصالة واقتدار .

شاعر الوجدان الذاتي : اننا نجد في شعر احمد خميس الوجدان الرومانسي للشاعر متلاقيا مع التعبير الرمزي ليعبر عن تجاربه تعبيرا مليئا بالصور الشعرية والايحاءات الفنية الخصبة .

ان شعره الذاتي تعبير اصيل وصادق عن احاسيسه ومشاعره وعواطفه ووجدانه ، فالنظرية الرومانسية ترى ان الشعر هو تعبير عن الشاعر وتركز على العالم الداخلي الشاعر اي انعكاس للعالم الداخلي للشاعر ، وقوة الخيال الخالق هي البوتقة التي تنصهر فيها كل عناصر هذا العالم من ذهنية وشعورية .

ولقد ظل احمد خميس شاعر الوجدان الذاتي يصور لنا تجاربه الوجدانية والنفسية والشعورية بصدق واصالة مغلفين بروح العصر من حزن وشكوى واسى وانين وتمرد .

ومن خصائص الرومانسية الحزن الخفي والاسى، وشاعرنا يتغنى باساه وحيرته الخالدة في هذا الوجود ، ويصور لنا نفسه كطائر على غصون الحب ، يداوي بنفسه جراحه ، ويشدو لروحه مما يروح عن نفسه .

ومن اصدق قصائد احمد خميس تعبيرا عن ذاتيته ومشاعره واحاسيسه وسماته النفسية والشعورية والوجدانية والذوقية قصيدته « الحيرة الخالدة » ، التي هي احمد خميس بذوقه ومشاعره وحبه وحيرته .

يصور لنا في مناجاة مع محبوبته سر اساه وحزنه الخفي ، ويفصح لها عن اسرار قلبه وسرائر روحه ، فيصور لها وحدته وغربته الروحية في بيداء الوجود ، فيقول :

انا يا فتنة الدنيا ويا رجع الاناشيد
شراع تاه في بحر شديد الموج عربيد
بشطيه خيالاتي واحلامي وتغريدي
تناديني نداء الحب للعشاق والغيد

ثم يقول لها انه لحن جميل ولكنه لا يصدر الا النغم الحزين :

انا لحن على قيثارة الحرمان والشعر
انا ... تناستني كؤوس الحب ...
انا زهر وهبت الروض ما حملت من عطر
انا الغريد في شجوي ولكن ليتني ادري

ثم يصور ظماه الروحي وحنينه الغلاب لعروس شعره ، التي ينشد لها الحان الحب والغزل :

انا والفكر والاوهام .. سمار باعتابك
ولي من لهفة الظمآن اشواق ..
انا والعمر والنجوى .... بمحرابك
ولي في الفجر والانداء تذكار على بابك

وتبلغ ذروة تصويره لغربة روحه واحزان نفسه ، في هذه اللوحة التي يصور فيها روحه المرحة المبتهجة وقد تاهت وسط بيداء الاشواك والاحزان :

انا روح مغلفة بالظلال والاضواء
كما طافت على الشمس تردت في سرى الماء
دعتها فرحة الدنيا الى ورد وانداء
فضلت عبر اشواك وكثبان وحصباء

شاعر الروابي الخضر : كتب احمد خميس في مطالع الخمسينات قصيدة وطنية رائعة هي « الروابي الخضر » كانت قصيدة حب وغزل وامل لمصر تتجلى فيها ابرز خصائص شاعريته وهي الرقة العاطفية والصدق الفني، والابتكار والاصالة فضلا عن براعة الصور الشعرية وحيويتها ؛ فهو في هذه الانشودة الوطنية التي يتغنى فيها بحب مصر لا يصخب ولا يرتفع صوته بل نجد نبرة

لبنان الجريح

لبنان ايـن السحر يا لبنـان ... لبنـان أين جمالـك الفتـان
ايـن الاماسي الحالمات ندية ... اين الصبـا المتألـق الريـان
فعلى الخدود وفي الصدود مفاتن ... يهفـو لها التفـاح والرمـان
ايـن المشيات الملاح كانها ... عقـد الزهـور بلطفـه مزدان
لا شيء غيـر مباهج اخـاذة ... نشوانـة يهفـو لهـا نشـوان
من روع الغزلان في اسرابهـا ... ارايـت كيـف تروع الغـزلان
من اشعـل النيران في الجنات من ... هل للجنـان وحورها النـيران
من كان يحسـب ان روح حمائم ... من تحتـه يتفجـر البركان
من داس باسـم الطائفية حرمة ... ان الجميـع بظلهـا اخـوان
برئـت ديانـات السموات العلى ... من نعـرة تشقى بهـا الاوطـان
كذبـوا فتلـك ذرائع مشوهـة ... قد حاكها التضليل والبهتـان
ما كانت الاديان اسلحـة بهـا ... يتناجرون أهـكذا الاديـان
يحنو على الحمل الوديع وجرحه ... ويضمـه الانجيـل والقرآن
لبنان هل يجديـك دامع واكـف ... جاشـت به الحسرات والاشجان
عوذت باسـم الحب واحتك التي ... هي مستجـم نعمـة وامـان
ياوي اليهـا المتعبـون تريحهم ... ويعـب من ينبوعهـا الظمآن
عوذت صفو سمـاك ان يغتالـه ... لهـب اللظى وحرائـق ودخـان
عوذت دارات الشموس يهزهـا ... قصـف وان يتهدم البنيـان

بغداد – ص.ب ٤٦٧ ... باقر سماكة

عاطفية هادئة ، فجاءت قصيدته صادقة ومعبرة عن مشاعر احمد خميس واحاسيسه الدافقة نحو مصر لان هذه الانشـودة هي احمد خميس وذوقـه ومشاعره واصالته ووطنيته .

يقول في مطلع هذه القصيدة :

يا ليالي الشرق هل عادتـك اشواق الغنـاء
والروابي الخضر تشدو والسنا حـلو الرواء
والامـانـي هتـاف عزفتـه الشفتـان
في مقلـة الارض وفي قلـب السمـاء

ثم يصور كيف جثا التاريخ بكل جلاله وشموخـه ليستروح امجاد مصر التليدة فوق روابيها الخضر :

وجثـا التاريـخ يستروح امجـاد الفـداء
فوق واد عطـر التربة ، فيـاض النمـاء
فافاقـت مصر ، شطانـا ، وعشبا ونخيـلا
تنفض الظلمـة عن فجر عزيز الكبريـاء

وبعد . فهذا هو شاعر الروابي الخضر ، احمد خميس ، الشاعر الرومانـي الحالم الرقيق الذي ابدع لنا اجمل أغاريد الحب والجمال واعذبها والذي يعـد خليفة « للملاح التائه » : علي محمود طه . وللاسف فليس لشاعرنا اي ديوان مطبوع ، ونرجو ان يصدر شاعرنـا ديوانه ليضم كل ما كتبه من قصائد في مختلف مراحـل تطوره الوجداني والفني لياخذ مكانه الحق في سجل شعرنا المعاصر .

القاهرة ... محمد محمود رضوان



عبد العليم القباني

جماعة نشر الثقافة بالاسكندرية

البداية والنهاية

١٩٣٢ - ١٩٦٦

بقلم عبد العليم القباني

* * *

كم اتمنى ان يضع احد المهتمين بتاريخنا الثقافي بحثا شاملا يدور حول تاريخ هذه الجماعة ، يلم فيه بجهود اعضائها في مجال الثقافة العامة بالاسكندرية ويبين بتفصيل واسع اثارهم الادبية في المدينة الجميلة ، وما قامت به هذه الجماعة من جلائل الاعمال .

حينئذ يعرف الناس اية صفحة رائعة من صفحات الجهد الشعبي الذي قدمه ابناء الاسكندرية في سبيل الوصول الى مستقبل ثقافي افضل .

هذه امنية ما زالت تراودني . فيعجزني ضيق الوقت وكثرة الاعباء عن القيام بتحقيقها . ثم عن لي ان اقوم بتسجيل بعض الملامح التي يمكن ان تكون شمعة في طريق باحثنا المنتظر . قبل ان تغيب هذه الملامح فيدروب الزمن .. ولقد شجعني على ذلك قول الذي قال :

« لا تستح من اعطاء القليل فان الحرمان اقل منه » ومن ثم كانت هذه الصورة الموجزة ..

حدثني المرحوم الاستاذ يوسف فهمي الجزايرلي فقال ان المرحوم الدكتور مصطفى فهمي هو صاحب الفكرة في انشاء جماعة نشر الثقافة بالاسكندرية ، اذ عرض فكرته التي ترمي الى جمع عدد من الادباء فينطاق جماعة محددة الاهداف مرسومة الوسائل على الاستاذ يوسف فاقتنع بها وباهدافها وبوسائل تنفيذها وطفقا يعملان معا على تحقيقها وقاما بتكوين لجنة تاسيسية برئاسة الاستاذ كمال رياض الذي كان وقتها رئيسا لقسم ايرادات البلدية ، ثم ارسلت اللجنة دعواتها الى خمسة واربعين اديبا من ادباء الاسكندرية ، فلبى الدعوة منهم اربعة وثلاثون اديبا ، اشتركوا في عقد الاجتماع الاول الذي اقيم بمقهى « الكريستال » الكائن على شاطىء البحر في وسط المنطقة الممتدة من « المنشية » حتى « محطة الرمل » وكان ذلك اواخر سنة ١٩٣١ .

تمت الاجراءات التمهيدية واعلن تاسيس الجماعة رسميا في فبراير ١٩٣٢ واشترك فيها عدد لا باس به من ادباء المدينة نذكر منهم الاساتذة خليل وصديق شيبوب وعثمان حلمي وعبد اللطيف النشار واللواء عبد المنصف محمود واللواء احمد الطاهر والدكتور مصطفى فهمي والدكتور داود حلمي والياس بدوي وخليل بدوي ومحمود البشبيشي وعبد القادر العوا والمحامون حنفي جمعه وعبد الخالق العزوني ومحمود مكي وعلي الحلواني وحسن سرور وابراهيم جميعي وميخائيل اسطفانوس الى اخر هذا الرعيل من رواد الثقافة بالاسكندرية في هذه الفترة .

ولقد قسم الاعضاء انفسهم الى ست لجان ، الاولى للنشر والثانية للتاليف والثالثة للترجمة والرابعة للمحاضرات والخامسة للحفلات والسادسة للموسيقى ولكل لجنة من هذه اللجان رئيسها وهيئة مكتبها بحيث تعمل في جو بعيد عن عوامل الاحتكاك بغيرها الا فيما يقرره مجلس الادارة الذي يشرف على الجميع «اشراف تنسيق » وكان الشاعر خليل شيبوب ، هو اول رئيس اختارته هذه الجماعة كما أختير الدكتور مصطفى فهمي للسكرتارية والدكتور داود حلمي لامانة الصندوق ، وفي السابع من اكتوبر ذلك العام حرر اعضاء الجماعة عددا خاصا من مجلة السياسة الاسبوعية التي كان يصدرها الدكتور محمد حسين هيكل وكان هذا العدد اول عمل ادبي جماعي لاعضائها الذين اهتم بعضهم «بابن خلدون» فقد كتب عنه الشيبوبان ومصطفى فهمي وبشير الشندي ومحمد سعيد بينما كتب عبد الحميد العبادي عن هرون الرشيد ونبوية موسى عن التعليم العالي والعزوني عن الوقف واثاره وحنفي جمعة عن فاوست وعبد اللطيف النشار عن الفرد والجماعة وترجم وديع جبران قصيدة

فرنسية بعنوان كاميل تلعن روما ونظم عبد الحميد السنوسي قصيدة وكتب عبد العزيز ساسي قصة ونشر يوسف فهمي وخليل شيبوب مقالين عن الجماعة ، وهناك مقالان لاثنين من انصار الجماعة هما الاستاذ احمد امين والدكتور عبد الوهاب عزام ولعل في مقال خليل شيبوب ما يلقى بعض الضوء على الظروف الاجتماعية والادبية التي احاطت بانشائها ونقتطف منه هذه الفقرة :

« نشأت فكرة الجماعة بين طائفة من نخبة ادباء الاسكندرية راعهم ما لحظوا بين ظهراني مدينتنا من حولهم ، ان الصدور مقفرة الا من روح المادة ، والنفوس مقوية الا من شواغل التجارة والوظيفة ، غير انهم اطاعوا عامل الايمان الراسخ واهابوا باخوانهم في هدوء وطمانينة فاذا بالجماعة مؤلفة ، وبالفكرة تخفق بها القلوب ..

كان اول غرض من تاليف الجماعة ان تشهد الاسكندرية ان بين ابنائها من هم اهل للقيام باكبر المشروعات الادبية فلا تبقى عاطلة من جماعة ادبية بينما القاهرة حافلة بالمعاهد العلمية والاندية الادبية ، بل ان للاجانب في الاسكندرية اندية ادبية ومعاهد علمية تنشر ثقافاتهم وترفع صوتهم ، بحيث يمكن للراغب في التأديب الاجنبي ان يختلف اليها ويصيب منها ، وقد كادت الاسكندرية ان تظهر بمظهر البلد الاجنبي الذي لا يمت الى القطر المصري بصلة ، لولا اللغة التي نتداولها وبعض العادات التي نالفها ، وقد اختصت جماعتنا بالثقافة دون غيرها لان العلم البحت جاف بعض الشيء وبيئتنا لا تستسيغه صرفا .. الخ »

وكان من ابرز الخطوات التي اتخذتها هذه الجماعة ان انشات معهدا للثقافة العامة بالمدينة ، وان جعلت الدراسة فيه بالمجان ، وقد تكللت مساعي الاستاذ اسكندر ابراهيم ناظر المدرسة المرقسية الثانوية وقتئذ وعضو الجماعة بالنجاح اذ استطاع اقناع المسؤولين في المدرسة المرقسية بتاجيرها ليلا للجماعة بايجار رمزي قدره جنيه واحد في الشهر وان يكون هذا المبلغ الزهيد نظير استهلاك المياه والنور ..

وقد قامت الدراسة بشكل محاضرات دورية طيلة الاسبوع ؛ وتدور حول فروع الثقافة المختلفة ؛ وهي على سبيل التحديد ، تاريخ مصر الحديث وتاريخ الاداب العربية والفرنسية والانجليزية وتاريخ العلوم الطبيعية ومبادىء الطب العامة ومبادىء الفلسفة العامة وعلوم النفس والمنطق والاخلاق والاجتماع ومبادىء المالية العامة والاقتصاد السياسي وطرق التجارة ومبادىء القوانين المدني والجنائي والمرافعات على ان يختار المستمع ما يشاء من هذه المواد ، وقد تطوع الاساتذة اعضاء الجماعة المختصون بهذه المواد بالقاء محاضراتهم بالمجان . كما اسهم معهم بعض زوار الاسكندرية من الاساتذة المختصين . ولزيادة الفائدة قررت الجماعة طبع اسس هذه المحاضرات في كتيبات تباع للمستفيدين من خارج الجماعة باسعار زهيدة وقد طبع من هذه المحاضرات اربع مجموعات ، كل مجموعة تحتوي على اربعة اجزاء ، وعلى سبيل المثال اذكر محتويات جزء من المجموعة الثانية (٢٨ نوفمبر الى ٢٢ ديسمبر ١٩٣٢) اذ انه تحت يدي ، وهي كما يلي خلاصة المحاضرات ٤ و٥ و٦ وموضوعها « الايام الاخيرة لنابليون في مصر » لمحمد لطفي حافظ ،والمحاضرات ٥ و٦ و٧ و٨ حول الشعر الجاهلي وتحليله والكلام عن شعرائه لعبد اللطيف النشار ثم محاضرة عن تاريخ الادب الفرنسي لخليل شيبوب ثم خلاصة محاضرتين عن شكسبير في الادب الانكليزي لاحمد مرسي ثم خلاصة محاضرتين في مبادىء الطب العام للدكتور جورج يوسف وخلاصة محاضرة في علم الفلسفة لمحمد علي حسن ثم قطع مختارة من الشعر العربي والانجليزي والفرنسي مع ترجمة عربية لهذين الاخيرين ويقع هذا الجزء في ١٠٨ صفحات من القطع المتوسط ويوزع بالمجان على اعضاء الجماعة بينما يباع لغيرهم بسعر ٢٥ مليما للنسخة واسهاما منها في سبيل الوصول الى هدفها توصلت الى الاتفاق مع دور النشر والمؤلفين على تزويد الجماعة بالكتب التي يصدرونها وبيعها لمن يرغب من الاعضاء بتخفيض كبير .

واسهاما منها في نشر مؤلفات المبتدئين من اعضائها قرر تشراء إعداد كبيرة من هذه الكتب اذا قام اصحابها بطبعها ومدهم بسلفيات تعادل ثمن الشراء مقدما كما نشرت بعض كتب الاساتذة من اعضائها .. وكذلك قامت بطبع المحاضرات العامة الخارجة عن نطاق معهدها .

وهكذا اسهمت في نشر ما يقرب من ٤٠ كتابا غير المحاضرات العامة والخاصة ، واسهمت كذلك في نشر الوعي الثقافي عن طريق الدعوة الى المسابقات العامة في مختلف المجالات الادبية والاجتماعية والقومية والعلمية .

ولقد ظل المعهد قائما حتى اعلان الحرب العالمية الثانية وانشاء الدولة لجامعة الاسكندرية بامكاناتها الضخمة واقامتها كذلك للجامعة الشعبية وعندئذ اكتفت جماعة نشر الثقافة بوجوه نشاطاتها المتعددة ما عدا المعهد .

وفي مارس سنة ١٩٦٢ احتفلت الاسكندرية بالعيد الثلاثيني لانشاء هذه الجماعة احتفالا فيه كثير من الوفاء والتقدير وقد اقيم تحت رعاية محافظ الاسكندرية على مدرج العبادي بكلية الاداب وشارك فيه المشتغلون بالادب من سكان المدينة وعلى راسهم الاستاذ محمد خلف الله عميد كلية الاداب وقتئذ بكلمات طيبة ، وكان من حظي ان شاركت في هذا المهرجان بقصيدة جاء فيها :

الصبا انت ، يا رؤاه الجميله ... يا هلالا على جبين القبيله
لا تقولي عهد الشباب تولى ... انت من فيئه بقايا الخميله
الثلاثون من حياتك حلم ... ذهبي ارخى علينا سدوله

مرافئ العيون

مرافيء العيون يا هنـــد	يفـرق في اعماقهـــا فرد
ابحرت فيهـا بعدمـا هزني	شـوق اليهـا وهو يشتـد
انا غريـق بين امواجهـا	اتعبني الابحـار والجهـد
امـا سبيـل نحو انقـاذه	وجسمـه قـد كـاد ينهـد
وساحل الاحـلام في جانـب	يغمـره الضبـاب والبعـد
فظـل يرنـو نحـو انـواره	من موجـة يقذفهـا مـد
انساه هذا الجهد طعم الكرى	وطال فيه الشوق والوجـد
وحولـه الامـال رفرافـة	وذكريـات الامس تمتـد
حيث عبير الروض في فرحة	تنشره الاعطـاف والنهـد
الثمـه في عـذب انفاسـه	اشمـه كانمـه الورد
فيستفيـق الحب في خافقي	في فرحـة ليس لهـا حـد
الله من عينيـك بعـد الذي	قاسيـت في الابحار يا هنـد

الكوت ـ العراق

كاظم محمد حسين

يا صفاف الامال يا واحة العمـ ـر ويا طهر ذكريات الطفولـه
جئتـك اليوم استعيـد لنفسي صورا لم تكن عليتـا بخيله
وانـا المرء لا ازال وفيـا خلـق ما عرفت يوما بديله
يا منار المنار يا فكرة الفكـر ويا ومضة القلوب النبيله
انت فوق الرمال نبع صفاء جل من صان بيننا سلسبيله
ايها المنكرون للفـن سفـرا عبقريا يدري الزمان فصوله
لن الملـك ان تهاوت عروش ومشى الموت في العروق الكليله
لـن الخلـد والطغـاة بقايـا من رفاة ممسوخـة مفلوله
انـه الفـن وارث الكـل ابقى من صليل الصوارم المسلوله
باد كسرى ، وارتد قيصر ميتـا وانطوت دولة الفراعين غيله
بينما الفن خالـد ابـد الد هر عرفنا بسره مستحيلـه
يا ابنة الثغر في يديك هـداه والمجبـون واليراع وسيله
يلهب الناس والملـوك وتبقى واحـة الفن جنة ماهوله
ان من قسم العبـاد شعوبـا جعل الفن بينهـا انجيلـه

وفي ابريل ١٩٦٢ اجريت اخر انتخابات لهـذه الجماعة بعد وفاة رئيسها عثمان حلمي فاسفرت عن مجلس ادارة مكون من السادة الاساتذة :

صديق شيبوب رئيسا ، والدكتورين عمر الجارم ومصطفى فهمي وكيلين للرئيس وعبد العليم القباني امينا عاما ويوسف فهمي الجزايرلي امينا الصندوق وفوزي الميلادي واحمد السمرة وصالح المصري وعبد المنعم الانصاري وحسن كامل والدكتورين محمد عبد المحسن الحسيني وجمال بدر أعضاء .

ولقد ظلت هذه الجماعة تؤدي رسالتها على وجه يقترب من الكمال حتى قامت الهيئة المحلية لرعاية الفنون والاداب والعلوم الاجتماعية بالاسكندرية بمعونة الدولة وتحت اشرافها ، فاجتذبت ببريقها الرسمي اغلب اعضاء جماعة نشر الثقافة ، وليس ادل على ذلك من ان اغلب اعضاء مجلس ادارة الهيئة المحلية كانوا هم اعضاء مجلس ادارة الجامعة وكذلك باقي اعضاء الجمعية العمومية .. ثم انتقل الاستاذ صديق شيبوب اخر رئيس للجماعة الى رحمة الله وحال كبر سن الاستاذ يوسف فهمي ان يجمع بين امانتي صندوق الهيئة والجماعة فاستقال من امانة الاخيرة. ولما لم اجد حولي من يعينني على اداء رسالتها ، توقفت عن متابعة جهودي لاحيائها ، ومن ثم اخـذت تنكمش رويدا رويدا حتى لفظت انفاسها الاخيرة رسميا في اواخر سنة ١٩٦٦ تطبيقا لقانون الجمعيات الذي صدر في هذا العام ، حيث لم يفكر الباقون من اعضاء مجلس ادارتها او من اعضاء جمعيتها العمومية في اعادة اشهارها مكتفين بما يقومون به من جهود كأعضاء في الهيئة المحلية ولاننا اقتنعنا جميعا بانه من العسير علينا ان نعمل في جماعتين لهما اغراض واحدة وتستهدفان هدفا واحدا وبوسائل تنفيذ تكاد تكون واحدة غير ان المعونة الحكومية واعانات الجهات المختصة جعلت مهمة الهيئة المحلية اكثر يسرا ولذلك انفض الناس عن الجماعة وانطوت صفحتها واصبحت ذكرى عطرة عند جمهور المثقفين في المدينة الخالدة ..

الاسكندرية

عبد العليم القباني

شهدت ميلادي مرتين

◎

ليلى السايح

◎

الكويت



كنت أجمل من حنان الابوة ، في أوجها
كنت ارق من مواسم الصحو
حينما تقلبت بعض ايامي
ووضعتها قريبا من قلبك ..
وفتحت على كل يوم
شباكا من نار ونور
هل ساحتج
لان هذا اللهب الابدي ينبعث
فيبعث في حنين الشموس الى آفاقها ؟
هل ساحتج
لان هذه الايام اصبحت وحيدة متفردة
وراء حدود الجغرافية البشرية
واصبحنا متوحدين متفردين في صحونا ؟
قلت لي :
يتوحد من يصحو
يتوحد من يحب
يتوحد من يحترق ...
وادهشتني
انك جعلت من الوحدة وجودا
ومن الجموع غيابا
لم ادرك انك تميزني
لتجعلني جديرة بهذا الحب القاسي
المتلألىء كالسيف بين الجوانح
كنت ترفعني شاهدة
في مملكة المطر
كنت تسميني :
بسمتك التي لا تزول !
كنت تحترق
لتعلمني ان الضوء لا ياتي
الا من الداخل ..
جعلتني
اشهد ميلادي مرتين !
سابكي كل ايامي
التي لم استطع ان اهبها لك
لتتحول الى شبابيك
على البحار الغامضة
المليئة بالوعود !
سابكي كل كلماتي
التي كتبتها
قبل ان اكتشف ينابيع الضوء
في الاعماق !



رشيد الذوادي

الشاعر التونسي الفيلسوف مصطفى آغه

بقلم رشيد الذوادي

* * *

لقد كان مفتونا بجمال الطبيعة وبمظاهر الطمانينة حتى اصبح الهدوء من اهم المظاهر التي لا تفارقه في اعظم المواقف ، وقد يتخيله البعض انه من ابناء تلك الاسر التي كانت تحرص على ان يبقى ابناؤهم بعيدين عن الانغماس في الحياة الاجتماعية ، لذلك نشأ ميـــالا الى العزلة ، شغوفا بها ، مطيلا للسكوت حينما يلتقي بغيره .

يتحسس احدنـــا كل هذه الملامـــح والصور والافتراضات ولكن ليس من العدل ان يجزم بصدقها من اول وهلة ، لانها احتمالات وهمية و « مصطفى آغه » لم يكن رجلا ككل الناس : اذ عظمته تكمن في الميـزات المتعددة التي جمعتها شخصيته والتي يتمثل بعضهـا في ايمانه بمبادىء الاخلاق وتعطشه الى الحرية ، ومحبته للمجتمع ، وغيرته على ابناء شعبه ؛ وتشبثـــه بتراث ابائه واجداده ،

اذن فما سر هذا الصمت الطويل الذي لازمـــه مدة طويلة من حياته ؟

ان دواعيه هو ما يعانيه هذا الشاعر من صراع نفسي ازاء هذا المجتمع المزق الذي يتمنى له الاصلاح وهو غير راغب فيه ، وهو بهذا الاعتبار كرجل فـــكر مسؤول يحس بان عليه رسالة وواجبات في هذا الوجود الصخب . وان من اوكد مسؤولياته . تحقيق وابراز مـــا يتمناه من أفكار تدفع بالامة نحو المجد والسؤدد ، ولكنه كثيرا ما شقي من حساسيته المفرطة ومما عاناه من هذا الصراع « الذي ينتهي غالبا بالفشل النسبي » (١)

اذن فما قصة هذا الرائد الشجاع ؟ وعلى اي درب سار حتى استحق ان يلقب بفيلسوف شعراء تونس في العصر الحديث ؟

كفاح ونجاح : انه من مواليد ضاحيـــة « الكرم » عام ١٨٧٧ م وفيها نشأ وتعلم محفوفا بعطف عائلته وكان جده مصطفى وزيرا للحرب في مدة احمد باي الاول : ١٨٣٧ — ١٨٥٥ وتربى هذا الشاعر تربية بيتية راقية قرأ في بيته ، واقبل على مطالعة دواوين الشعر فتكونت له ملكة ادبية قوية نظرا لما اشتهر به من ذكاء وقـــاد وهدوء جاش (٢) .

ففي هذا الوسط « البورجوازي » نشأ الشـــاعر مصطفى آغه وتلقن مبادىء العلوم العربية على الاستاذ الخاص الذي ينتدب عادة لتعليم ابناء الذوات وشباب علية القوم ، فقد تعلم على خيرة اساتذة ذلك الجيـــل امثال : محمد القرطبي وعثمان ابن المكي التوزري ..

وقد كانت دراسته على هذين الاستاذين تنقطـــع حينا وتستمر احيانا لكنها حببت اليه المطالعة والاستفادة من كتب الحضارة الاسلامية ، وآداب اللغة العربية ، ومصادر ابحاثهـــا وفنونها من قصة وشعر ونقـــد وتمثيل الخ ..

وقد قضى الشاعر مصطفى آغه شبابه وايـــام كهولته ببيته ، فكان منعزلا عن المجتمع وعن تياراتـــه باستثناء بعض الاعيان الذين كانوا يترددون على قصره « بالكرم » لحضور مجالسه الادبية ومن بين هؤلاء المؤرخ الشهير حسن حسني عبد الوهاب (١٨٨٤ — ١٩٦٨) وحسن قلاتي والشيخ احمد بيرم شيخ الاسلام والملك الناصرباي والعالم محمد باش طبجي الخ ،

وتمضي الايام ويؤسس شاعرنا مع بعض اترابـــه « النادي التونـــي » الكائن بنهـــج الكومسيون بتونس باشراف الاستاذين عبد العزيز الزاوش وعلي بـــاش حاميه : (١٨٧٩ — ١٩١٨)

والملاحظ ان هذا النادي الذي كانت تؤمه الطبقة الارستقراطية في البلاد ؛ كانت تدور فيه الاحاديـــث السياسية والمناقشات الادبية والاقتصادية وغيرهـــا ، وكم من مشروع تونسي برز من هذا النادي ، فهـــذه جمعية الاداب التمثيلية التي تأسست عام ١٩١٠ ، وهذه جمعية قدماء الصادقية ١٩٠٥ ، وهذه جريدة «التونسي»

---

(١) الادب التونسي في القرن الرابع عشر المجلد الثاني ص ٥ .

(٢) مجمل تاريخ الادب التونسي : ح ح عبد الوهاب ص ٢١١ ط تونس ١٩٦٨ .

١٩٠٧ : وعده شركات اقتصادية ومؤسسات علمية واجتماعية الخ

كما تفرع عن هذا النادي «الحزب الاصلاحي» الذي لا يرى مانعا في سياسة المشاركة في المسؤوليات مع الفرنسيين وقبل الاصلاحات التي عرفتها حكومة فرنسا والمعروفة باصلاحات ١٢ جويليه ١٩٢٢ م والتي خولت تاسيس المجلس الكبير والحجرات الاقتصادية ، ومجالس الجهات الخمس ، ومجالس العمل الخ .

ونظرا لاختلاف وجهة النظر السياسية بين الحزب القديم والحزب الاصلاحي فقد وقع الادعاء على الحزب الاخير بانه يسعى لمناهضة اللغة العربية من خلال المسرحيات التي تقدمها جمعيته التمثيلية ، لذلك راينا الحزب القديم يسعى هو ايضا في انشاء جمعية مسرحية جديدة هي جمعية « الشهامة » الذي تولى رئاسة مجلسها الاداري المرحوم الشيخ عبد العزيز الثعالبي : ١٨٧٥ ـ ١٩٤٤ م .

ومن خلال هذا الصراع المذهبي شاهدت الجماهير التونسية عدة مسرحيات قدمتها فرقتا الحزبين مثل : « حفصية » و « هو عسام » و « شهداء الوطنية » و « القائد المغربي » و « صلاح الدين الايوبي » .

في الحزب الاصلاحي: احتضن «الحزب الاصلاحي» الشاعر مصطفى آغه فظل هذا الشاعر ملتزما بمبادىء حزبه متحمسا له ، متحملا لكل مكروه في سبيل اختياراته ،

وقد نوهت به كل من جريدتي هذا الحزب « البرهان » و « النهضة » فنشرتا العديد من مقالاته واشعاره ، ويذكر المؤرخ الاستاذ محمد الفاضل ابن عاشور في كتابه : « الحركة الادبية والفكرية في تونس » ص ١٤٦ عن عمل شاعرنا في الحزب الاصلاحي الذي تمسك باصلاحات عام ١٩٢٢ في عهد المقيم (لوسيان سان) ويرى انها خير من لا شيء .. فيقول عنه وعن المعركة الحزبية والسياسية التي ارادها الاستعمار قصد تفريق الصفوف واضعاف المقاومة والقضاء عليها : « .. واحتضن مصطفى آغه نادي الحزب الاصلاحي ونوهت به جريدتيه . وكان من شغوفه الذاتي وتساميه الفلسفي واعتداده بحكم العقل والمنطق في كل شيء ما ابعد الشقة بينه وبين الحركة الشعبية ؛ وعملت جريدة الحزب الاصلاحي على اغاظة الشاذلي خزنه دار في مناصرة مصطفى آغه وتقديمه . فكان للمعركة الحزبية السياسية دخل كبير في الميدان الادبي بالمفاضلة بين الشاعرين ، كما كان بين الوطنيين والاصلاحيين بمصر في شان حافظ وشوقي ؛

واصطبغت قصائد كل من الشاعرين بصبغة المسلك الذي ارتضاه لنفسه فجاءت قصائد خزنه دار حماسية تفخر بالانتصارات وتثور في وجه الاعتداءات ؛ تصدر بمناسبة الوقائع الكمالية وحفلات الهلال الاحمر وحوادث التنكيل بالوطنيين ، والابتهاج برجوع المبعدين، وخروج المساجين ووصف المظاهرات. وتشييع الوفود، وانعقاد المجامع السياسية وتفيض كلها حماسا ووثوقا بانتصار الحق . وحسن عاقبة الصدق . ويقوم فنها الشعري على وحدة الغرض وتسلسل عناصره . وطول النفس وتلاقي الفقر على طريقة الأطناب فكانت قصائده كالخطب لها من الاثر في السامعين وقت انشادها ما لا يستطيع الناقد ان يكشف عنه ما لم يجدد الظروف التي مكنت لها حسن القبول ؛ على ان النقد المنصرف للفن الصرف لا يستطيع ان يغطي على اسقام في التراكيب وزحافات في الاوزان وابتذال في المعاني وحشو في الالفاظ كانت الحرارة الفائضة من تلك القصائد تذيبها فلا يحس بها السامعون .

اما قصائد مصطفى آغه فقد كانت بمعزل عن هذه المؤثرات لم تشر الى الحركة الوطنية بكلمة ، ولا جرى فيها ذكر زعيم ، ولا لفتة الى السياسة ، بل تمخضت الى النظر الفلسفي والوصف الاجتماعي واقيم هيكلها على الخيال الروائي ، فبنيت على تصوير المقامات وتخييل المحاورات بروح فلسفية ساخرة قانطة ، تنظر الى البؤس المادي والشقاء العقلي اللذين حفا بحياة الناس كما ينظر المعري في اللزوميات ، وصوغها جزل واضح التراكيب ، مستكثر من البديع ، مطرد في الوصف يتمشى مع تنقل الحوار وتسلسل الاحداث والمعاني فتتواصل فيه الابيات كانها جملة واحدة حتى يكثر فيها التضمين ، وربما يتعاطى عليه اتحاد الميزان الشعري مع ما يريد من جزالة وسهولة في التركيب ـ فيتغلب على ذلك بزحاف او خبن ، وكثيرا ما يقع بسبب ذلك في اهمال القواعد النحوية فيلحن لحنا فاحشا ، على انه شاعر الحكمة السامية . وصاحب الخيال البديع ، حقيق بشعره ان يحتل منزلة الاعتبار في مقاييس الاداب العالمية لولا انه قليل التفنن منسوج على منوال واحد (٣) .

وقد كان جزاء الشاعر مصطفى آغه من خلال هذا الصراع الفكري المذهبي مداعبات خفيفة ومتوالية في صحيفة « النديم » على لسان الاديب المرحوم محمد الصالح المهيدي لحمل التونسيين على الاستخفاف بما يكتبه هذا الشاعر من افكار وآراء والضحك منها (٤) .

نشاطه الثقافي : لقد احب الشاعر مصطفى آغه وطنه حبا عظيما فهام به منذ الصغر ، ودافع عنه ؛ ودعا الى نصرته وساهم في نشاطاته الاجتماعية والثقافية فما من جمعية ثقافية في البلاد تاسست في عهده (١٨٧٧.

---

(٣) الحركة الادبية والفكرية في تونس للاستاذ محمد الفاضل ابن عاشور ص ١٤٧ .

(٤) مجلة « الثريا » العدد ١. السنة الثالثة عام ١٩٤٦ ص ٥).

ـ ١٩٤٦ م) الا وكانت له مشاركة فيها . وما من نـاد ادبي او اسرة ثقافية الا واستمعت الى اغاريد شعره وبليغ قوله ، وملحه الادبية ابتداء من « النادي التونسي » بنهج الكوميون بالعاصمة الى جمعية « الاداب التمثيلية » ، الى نادي « جوق التمثيل العربي » الذي تاسس عام ١٩٢١ واختير ضمن هيئته المسيرة ، الى الاتحاد المسرحي ، الذي عينه في سنة ١٩٣٧ على راس لجنة تحص الروايات في مباراة التاليف المسرحي المعلن عنها في تلك السنة الى نشاطه في « الجمعية الرشيدية » التي ابلى فيها البلاء الحسن على اثر تكوينها عام ١٩٣١ حيث كلف من طرف مؤسسها ورئيسها الاول الاستاذ مصطفى صفر برئاسة لجنتها الادبية التي اضطلعت بدور هام في ميدان تاليف الاغاني ، واقتناء الفاظها ، وتطهيرها من وحشي الكلام ،

وهكذا تمكن الفقيد من ان ينقح كامل « نوبة العراق » ، كما استطاع ان يجدد الفاظ الكثير من الاغاني وان يؤلف العديد منها ، ولعل من اشهر قصائده التي لحنها الفنان خميس ترنان ١٨٩٤ ـ ١٩٦٤ في مقام (الماهور) .. قصيدته الشهيرة « هجر الحبيب » يقول مصطفى آغه في هذا القصيد الذائع الصيت :

هجر الحبيب ومـا درى ... من بعد غيابه ما جرى
ان الهاجـر بعـد ، ... منها جرى ما قد جرى
يا ايها الواشي الـذي ... دس الدسائس وافترى
خـف ربك الاعلى ومن ... خلق الملاح وصورا
ان شغفتني شغفـة فما ... كنت المفرد في الورى
ان الرشاقة والبهـا ... ملكا النفوس كما ترى
ما بـاع صـب راحة ... كلا ولا الحب اشترى
لكنما ملـك الهـوى ... قلبا لـه فتصبرا
وتصاعدت زفراتـه ... لما الفؤاد تسعرا
فاذا دعوت على امرئ ... واردت ان يتحسرا
قل رب سقه لغادة ... فيها الجمال توفرا
فهنالك تلقى الناس ـ لا ... ريب ـ العذاب الاكبرا

والى جانب نشاطاته في الرشيدية التي استمرت الى نهاية ١٩٤٣ فانه ساهم مساهمة كبيرة ايضا في لجنة الفنون الجميلة التابعة لبلدية تونس ومن ينسى مواقفه الشهيرة في الدفاع عن المسرح وعن الموسيقى والرسم وكل ما يهم الفنون الثقافية التي قامت بها بلدية العاصمة في ذلك العهد .

كما بذل نشاطا محمودا في جمعية قدماء المدرسة الصادقية فيما بين عام ١٩٢٧ وعام ١٩٤٤ سـواء في مشاركتها في اعمال لجنتها الادبية او بما نشره من قصائد في مجلتها الصادرة سنة ١٩٢٠ بالاضافة الى لقاءاته المستمرة في نادي هذه الجمعية مع ثلة من نبناء الراي والقلم التونسيين امثال الشاذلي خزندار ، واحمد العتكي ، والهادي العبيدي ومحمد علي العنابي ، وعثمان الكعاك ، والعربي الكبادي واضرابهم .

وهكذا برهن مصطفى آغه من خلال هذه النشاطات المتنوعة عن حبه لشعبه ، وعن اعتزازه بتراث الاجداد ؛ فظل صامدا كالطود الشامخ الذي لا يتزحزح في كل هذه المشاريع باذلا من جهده ، مسخرا طاقاته ، الى ان فارقنا الى دار الخلد سنة ١٩٤٦ .

آثاره : لم يترك لنا مصطفى آغه الكثير من الاثار الفكرية رغم قلة هذه الاثار فانها تدل دلالة واضحة على عمق ثقافته وعن تخيره لحسن الكلم ، وعنايته بفن البديع فهو فيلسوف بحق ؛ واديب مؤثر وهو شاعر العقـل والخيال .

اما آثاره الادبية فيمكن حصرها فيما يلي :

١ ـ ديوان شعر مطبوع .

٢ ـ انا والمعري : مجموعة احاديث كان اذاع بعضها في الاذاعة فيما بين عام ١٩٣٦ وعام ١٩٤٣ وقد نشرت مجلتا « الثريا » و « الندوة » عددا لا باس به منها .

٣ ـ خواطر ادبية : مجموعة مقالات مخطوطة .

شخصيته الشعرية : ان اول ما يتجلى في عظمة هذا الرجل انه قبل كل شيء شاعر مجيد تبهرك الفاظ شعره بسهولتها ويستوقفك خياله الرائق الاخاذ ووصفه الدقيق الساحر .

اما شخصيته الشعرية فقد اجتمعت عوامل مختلفة على تكوينها ومن بين هذه العوامل : نفس طماحة تابى عليه الا مجاراة الكبار من الشعراء ، وخيال فسيح فياض بعيد الافاق ، وذاكرة فزيدة ، وسهولة الفاظ مع عناية فائقة بفن البديع .

وتستطيع ان تلاحظ كل هذه الخصائص في معظم اشعاره الرائعة سواء التي كان قد نشرها الاستاذ زين العابدين السنوسي في المجلد الثاني من كتابه « الادب التونسي في القرن الرابع عشر » او في اعداد « مجلة الثريا » او في غيرهما من المراجع على ان معظم قصائده (تقوم على غايات عقلية او تصور مناظر ملفتة بنفسها) كما اوضح ذلك صاحب كتاب الادب التونسي في القرن الرابع عشر ، (ج ٢ ص ٥) ، ولا شك ان هذه الميزة تجعل من قصائد شاعرنا لو ترجمت الى لغات اخرى لا تفقد شيئا من قوتها الحقيقية ولا من طرافة اسلوبها .

أما المحسنات البديعية مثل : الجناس، والاقتباس وحسن التعليل ، والطباق ، والسجع ، والتورية والمقابلة، وتاكيد المدح بما يشبه الذم وعكسه ، فقد تفنن فيها وهام بها اشد الهيام ، وقد دفعه الشغف الى ان ينظم الشطرة او البيت لتثبيت البديعة التي لمحها عن بعد وابرازها في اشعاره الجميلة الخلابة وخذ ما في كتاب « الادب التونسي في القرن الرابع عشر » ص ١٧ و١٨ والذي مطلعه :

شجاني من بلابل ما شجاها ... مساء قد شكت الفا جفاها

فانك تلاحظ ما يمتع نفسك من مناظر خلابة ، وحسن تنميق ؛ وروح فياضة ، وخيال خصب يبهر الالباب .. اقرأ هذه الابيات وتمعن في حسن الاقتباس فيها مع روعة الخيال :

سيولا من لجين فوق ماء يحركها النسيم اذا اتاها
وقارب قارب جرا مقبلا كواعب كالازاهر في نداها
كواكب من بني الانسان ليست كواكب يوسف لما رآها
وباتت بينهن فتاة غرب شقاء العيش في شرق رماها
كعاب من اجانب ميزتها على العرب الحسان ذؤابتاها
ايحمل رب هذا الفلك مستا مرا « بلقيس » من سبا سباها
ام « امرأة العزيز » تميل تيها ولكن لا ارى معها فتاها
سوى كهل يباسطها حنوا ويبذل نفسه طوعا فداها
طمعت بجولة (فرضت) ولكن اباها بالاشارة قد اباها
واذعن طائعا من بعد لما رأى ان السعادة في رضاها
فلاقتني بترحيب وبشر فانساني التطفل ملتقاها
بـ (باسم الله مجراها) تخطت وقد حمدت اهاليها سراها
فجارية الى الميناء تجري وجارية لقا صب مناها
وتلك تشق امواجا وهذي تشق لحاظها قلبا هواها
ودارت بيننا .... تريح الروح من كدر عراها

والملاحظ ان الإغراض الشعرية التي عالجها هذا الشاعر هي نفس الاغراض التي تناولها معظم شعراء عصره من مديح ، ورثاء ، وغزل ، ووطنيات وحكم واجتماعيات .

اما الطريقة التي صاغ بها هذه الاشعار ، فقد انفرد بها عن غيره من الشعراء العرب .. انها تعتمد على الحوار الفلسفي الساخر ، وعلى الخيال الفياض ، وعلي تسلسل الاحداث والمعاني ، وعلى التفنن في استخدام البديع ، وقد تسبب له محافظته في الصوغ على هذه الطريقة في اهمال القواعد النحوية فيلحن لحنا فاحشا ،

في صحبة المعري : ويعد مصطفى آغه من الذين يحافظون على الود والوفاء لمن اخلصوا لرسالتهم الادبية والفكرية وتفانوا في حبهم لحضارة العرب وتاريخهم وامجادهم سواء كانوا اشخاصا او مشاريع ، ولذلك رايناه مخلصا لابي العلاء المعري ٩٧٣ ـ ١٠٥٨ ومتعلقا به ومفتونا بمطالعة آثاره الكثيرة التي قد تبلغ السبعين تاليفا بين منظوم ومنثور وكلها يتناول مواضيع مختلفة من اجتماع وفلسفة وادب ولغة ودين الخ . ولعل من اهم هذه الاثار التي امكن الاطلاع عليها : « سقط الزند » و « الدرعيات » وتسمى ايضا : بضوء السقط وهي في الحقيقة قسم من سقط الزند ، يتناول وصف الدروع و « اللزوميات » والفصول والغايات ، ورسالة الغفران ، ومعجز احمد ، ورسالة الملائكة (٥) ورسالة ملتقى السبيل (٦) الخ .

لقد احب مصطفى آغه شيخ المعرة لان ابا العلاء كان متوقد الذكاء ، واسع الثقافة ، له معرفة بالحديث والفقه والفروع والمذاهب وله اطلاع بعلوم اللغة والنحو والاداب ، وملم بعلم الملل والاديان وبنجل المسلمين وباخبارهم ، حتى قال التبريزي عنه : « ما اعرف ان العرب نطقت بكلمة ولم يعرفها المعري » ولذلك رايناه يهتم بدراسة انتاجه الضخم كفيلسوف واع لا كشاعر يجيد نظم القوافي وصوغ الابيات فحسب .. انه درس في اسمار النادي الادبي « لجمعية قدماء الصادقية » عام ١٩٢٧ «سقط الزند» و «رسالة الغفران» و «اللزوميات» . كما قدم لمستمعي الإذاعة عشرات الاحاديث عن ابي العلاء بعنوان : « انا والمعري » وذلك على اثر تاسيس الاذاعة عام١٩٣٦ وكانت هذه الاحاديث في شكل محاورات ممتعة بين الشاعرين تشمل الفلسفة والادب والفكاهة (٧) وقد استمرت هذه الاحاديث الادبية الرائعة عدة سنوات ثم اختفت بسبب الحرب العالمية الثانية ثم عادت على اثر انتهاء الحرب عام ١٩٤٢ ولكنها عودة فيها فتور ، وفيها انقطاع ، بسبب توعك صحة شاعرنا ومرضه . ويتحدث الاديب اللامع الاستاذ الهادي العبيدي عن عودة برنامج « انا والمعري » بالاذاعة عندما كان يشتغل هناك فيقول :

« وما زلت اذكر ايام كنت بالمذياع بعيد الحرب العالمية الماضية وقد انقطع الاستاذ آغه عن اذاعة احاديثه عن المعري ثم عاد يستانفها من جديد ، ورايت ان اقدم الاستاذ آغه بنفسي الى المستمعين بصورة تلفت انتباههم نظرا لقيمة المحاضر والحديث فاعلنت ان الحرب عادت من جديد اشد واقسى مما كانت عليه .. ولكنها حرب لا دمار فيها ولا دماء فهي الحرب الفكرية الدائرة بين الاستاذ مصطفى آغه وابي العلاء المعري ، وقد كانت الجملة الاولى من هذا التقديم ذات مفعول قوي في نفوس المستمعين فانزعجوا لا سيما والحرب بالبلاد التونسية لم يمض على انتهائها طويل وقت ، فرنت اجراس الهاتف بالاذاعة من كثير من الجهات تعرب عن فزع اصحابها للنبأ مستنكرين هذه المداعبة الفظة ؛ وفي الغد حمل البريد كميات من الرسائل الصادرة عن المستمعين تفيض وصفا لما داخلهم من روع عند سماعهم للجزء الاول من التقديم ؛ وقص علي صديق فزع عائلته عند سماعها للتقديم حيث شاءت الصدف ان تمر فوق منزلهم ساعتئذ طائرة اظنها من طائرات البريد فزاد ازيز محركاتها في الفزع حيث تصورت العائلة المذكورة

(٥) رسالة الملائكة : الفه المعري وهو يحتوي على مجموعة اجوبة عن مسائل تصريفية سئل عنها من طرف الطلبة وقد عني المجمع العلمي العربي في دمشق بطبعه .

(٦) رسالة ملتقى السبيل : رسالة فلسفية الفها المعري ونشرتها مجلة المقتبس في ج ١ س ٧ ثم نشرها كامل كيلاني مع رسالة الغفران.

(٧) مجلة الثريا عدد ١٢ ص ٢٧ ديسمبر ١٩٤٦ .

يا ألذ مصائبي

ابدا ، انا ما خنت نجم ركائبي ... حتى تموت براحتيك رغائبي
اغريت افلاكي ببدر راقص ... في حقلك الزاهي بدفق ترائبي
كم ذا اداري البين منك بادمع ... حرى ، تذيب الثلج بين ذوائبي
اشكو اليك الاين يرقص في النهى ... لما جعلت الحزن طي حقائبي
اودعت نفسي في يديك ، فقدتها ... للتيه في بيداء ذات نوائب
والصبح في عينيك يتلو قصائدي ... وانا عيوني غابة لشوائب
اوقدت روحي في صراطك راضيا ... يا قاتلي ... بل يا الذ مصائبي
خذ خافقي نعلا لرجليك ، انه ... من دون خطوك هائم بخرائب
فالنبض فيه غدا يرتل آهة ... في عمرك اللاهي بعمري الذائب
يا منتهاي ، وسدرة الخلد التي ... امشي لها ببراق شوق دائب
ان كان زهر عواطفي متوهجا ... فالنار تلبسني كثوب ساغب
فافتح شفاهك بالنداء ، فانني ... ارنو اليك ، ولست عنك بغائب

مراكش ـ المغرب ـ ص ب ٤٦١ ... آيت وارهام احمد بلحاج

النبا حقيقة واقعية ، وحمدت الله على ذلك اذ اعتبرته نجاحا في لفت انتباه المستمعين الذي قصدت اليه (٨) .

وهكذا ترون من خلال هذه اللقطة شدة حب شاعرنا « لشيخ المعرة » وطول صحبته له ، وهيامه بأدبه ، واعجابه بما اوتيه ابو العلاء من مواهب فطرية، وثقافة دسمة واسعة ، واحاطة بشتى العلوم التي خصلها بجده واجتهاده .

مع امير شعراء تونس : ومن المأثور عن شاعرنا مصطفى آغه انه كان كثير الاتصال بالشاعر الكبير وامير شعراء تونس الاستاذ محمد الشاذلي خزنه‌دار : ١٨٨١ ـ ١٩٥٤ فقد كان يتصل به في محل سكناه « بمنوبه » باستمرار ويقضي معه الايام والاسابيع في المراجعة والمذاكرة ولعل من إهم ما تعلمه عن امير شعراء تونس : موازين الشعر واصول العروض والقوافي (٩) ، وكانت صداقتهما يتخللها احيانا مزاح لطيف ونستطيع ان نلمس كل هذا واضحا جليا في عدة ابيات قالها في شان صديقه واستاذه منها :

الى ما تلسج في هذا الخوار ... حذار ايها المغري حذار
وهب اني صفحت عليك يوما ... فانت اليوم افقدت أصطباري

وكان الشاعر مصطفى آغه من الولوعين بشعر محمد الشاذلي خزنه‌دار ومن المهتمين بتراثه الفكري فاستمع اليه مخاطبا أستاذه هذا قائلا :

الا يا خير من نظم القوافي ... وابرع من تفنن في النشيد
مكاك قد فتحته بعد هجر ... وقفل فوق باب من حديد
كأنك للقرائح مهرجان ... تؤمك من قريب او بعيد
لئن قدس غيرك مفردات ... تزاحم في القصائد كالبنود
فما لي لا امجد من اتانا ... بنظم كله بيت القصيد
بعثت الشعر من رمس التناسي ... وكم بكت العيون على الفقيد
نفخت الروح فيه بعد موت ... فدبت في رفاته من جديد
تساءل هل تعاوده حيباة ... بدون فرزدق وسوى لبيد
فتسودي ان .... عرق في الفضائل من جدود
وربك ان ربك ذو اقتدار ... فسارع نحو بابه للسجود

كما كان يلتقي باستاذه خزنه دار في كل من الاذاعة والرشيدية ، ونادي قدماء الصادقية ، ونادي الثلاثاء بالكرم ، وفي الخلدونية وفي دور الصحف والمجلات ، كما جمعتهما رحلات كثيرة قاما بها في داخل الجمهورية .

ونظرة سريعة في ديوان خزنه‌دار تعطينا كشفا حقيقيا عن متانة هذه الصداقة وعراقتها .

وعلى كل فالمواهب الفطرية الفريدة التي اوتيها مصطفى آغه جعلت منه اديبا ممتازا وعى من اصول الفلسفة الشائعة في عصره الشيء الكثير .

واننا لا نستطيع آن نجعل من آرائه فلسفة بالمعنى الحصري ، ولا ان نعد صاحبها فيلسوفا ابتكر آراء جديدة معينة كارسطو وابن سينا والغزالي وغيرهم ، لان كل آفكاره هي ليست بالعلم المنظم ؛ انها تأملات في الحياة مقتبسة من مذاهب وتجارب قديمة انتهت بانتهائه .

تونس ... رشيد الدوادي

(٨) مجلة « الندوة » التونسية العدد الثامن اوت ١٩٥٢ ص ٦ .
(٩) مجلة « الثريا » العدد ١٢ ـ ديسمبر ١٩٢٦ ص ٢٧

الانكار تطحنه .. رأسه يكاد ينفجر . الامه لا تطاق لا يستطيع ان يتصور ما حدث .. كيف غاب عنه ذلك وهو الاخصائي العالمي ؟ كيف غاب عنه ان يشخص مرض ابنته الوحيدة تشخيصا دقيقا ؟ كان غافلا .. نسي ابنته في زحمة تكالبه على المادة وجمعها . كارثة كبرى !!سعاد مريضة بالسرطان ولا فائدة في اي محاولة !!

وجرت دموعه ولم يستطع لها منعا .. كيف حدث ذلك ؟ ولماذا غابت عنه معرفة الحقيقة . سعاد وردة ذابلة ولا شفاء يرجى لها ؟ المرض خطير وقد تاخر اكتشافه وعلاجه .. كان الواجب استئصال الورم منذ سنوات طويلة ولكنه اهمله . كان يحسبه عضلة زائدة استقرت فوق ضلوع صدرها. ولكن تشخيص كبار الزملاء الذين استدعاهم بعد ان احس بالخطر اكد له ان ما كان يحتسبه عضلة ليس الا ورما سرطانيا خبيثا في غفلة منه ولم تهتم الفتاة .. الشاب لا يتصور وجود ما يهدده .. يا الهي .. كيف حدث ذلك ولماذا ؟

لقد صفعني الزملاء بما اكتشفوه .. لقد اخبروها ايضا !! حتى تحس بخطورة الامر ولا تتردد في مواجهته هكذا تعودوا وتعودت انا ايضا .. انهارت المسكينة ولكنها تتماسك امامي حتى لا اضعف .. كان يجب الا تعرف .. ولكن صديقي حمدي اصر على ان يخبرها .. صفعها بالحقيقة المرة باسم الاهمية والاهتمام ولكي تقتنع باهمية الجراحة الخطيرة .. بل واصر ان يؤكد لها ان الواجب يدعوها لان تجري العملية باسرع مما يمكن وان تعد نفسها للسفر للخارج فورا ..

قاتل الله هذا الحمدي ! انهم قتلة قساة غلاظ الاكباد . لماذا عذبوها ؟ لماذا عذبوني . وانهمرت دموعه ولم يستطع لها منعا .

وعندما احس بحركة خلفه التفت فجاة فشاهد ابنته سعاد تتحامل على نفسها وتقترب منه .. كان وجهها الابيض النحيل مصفرا .. مدت له يدها الرقيقة باصابعها النحيلة وكانت ممسكة بمجلة طبية مفتوحة على صفحة معينة .. وفي سرعة خاطفة استطاع ان يتماسك ورحب بها .. اخفى آلامه عنها ولكنها تعرف حقيقة شعوره . كانت قد سمعته وهو يبكي .. ارتفع صوته دون ان يدري .. خانه صوته .. تقطعت نياط قلبها فهو الاب والام والاخ ، وهي ابنته الوحيدة .. اسرته كلها .. رحلت والدتها منذ زمن بعيد وليس لها



بقلم السيد ابراهيم

اشقاء .. ابتعد عن الاقارب وتقطعت بينه وبينهم الاسباب وغرق في اعماله ونجاحه الكبير في عالم الطب واليوم يحس بالالم من اجل ابنته الوحيدة ، وتحس هي بالاسى من اجل والدها .. ولكنها تحاول ان تفتح له ثغرة للامل .. الاقدار وضعت في طريقها المجلة الطبية .. وتقرا الموضوع المنشور وكان عن احدث اخصائي شاب انجبته البلاد وتخصص في الامراض السرطانية وهب نفسه للعلم ونجح وتفوق على كبار الاخصائيين في الخارج



والصحف العالمية كلها تتحدث عن نبوغه ولا يقف ضده في بلده سوى الكبار الذين احتكروا العلاج والطب فالقدامى يخشون الجدد ويسفهون دائما كل حديث عن الجديد حفاظا على كيانهم .. لا يهمهم سوى انفسهم .. المهم في نظرهم جمع الاموال ولو على حساب البؤساء والمساكين. القليل النادر منهم يتفهم طبيعة مهنته ورسالته في الحياة .

والطبيب الجديد شاب تخرج في الجامعة وعندما ظهر تفوقه رشح لعدة بعثات الى الخارج شرقا وغربا وفي جميع الجامعات التي تهتم بتخصصه وحظي بالتفوق والاحترام وشارك في اخطر العمليات وكان امامه الكثير من الفرص ليعيش في الخارج منعما ولكنه انسان اصيل آثر العودة الى بلده لخدمة اهله وعشيرته . المقال المنشور رائع .. خفق قلب سعاد .. هذا الانسان رائع .. يبدو من صورته المنشورة انه انسان رقيق .. وجهه النحيف وعيناه فيهما بريق غريب ينبعث منهما حتى في الصورة .. الشعور بالرضا والاطمئنان .. انظر يا ابي .. الموضوع رائع .. يقولون ان الدكتور مجدي قد تفوق على الجميع .. وتناول منها المجلة .. لم يحاول النظر فيها .. خانته اعصابه وصرخ في عصبية :

– هراء ... هذه اعمال صحفية .. دعاية .. الصحافة خطرة جدا تخدع الناس .. هؤلاء الشبان يعتقدون انهم سوف يصنعون المستحيل .. هراء .. لا اصدق كل هذه الاكاذيب عن عبقريته ... وعن عظمته .

وقاطعته قائلة : ولكن يا ابي اقرا المقال اولا ثم اتخذ قرارك ..

وقاطعها في عصبية .. لقد قراته .. سمعت منه .. الجميع يتحدثون عنه .. شهرته تضايقنا جميعا ... الناس سذج سرعان ما ينسون خدماتنا ويلتفون في جنون لهذا الخداع .

دعاية هائلة تشارك في صنع هذا المخلوق . هذه العبقرية دعاية من صحفي مافون .. هذا عبقري صنعته الدعاية الجيدة لا العلم الحديث .. وارتجف بدنها في عصبية وعندما شاهدها على هذا الحال .. فارقه غضبه وتسلطه وربت على كتفها بحنان ثم وضع ذراعه حولها وسارا في رفق .. جفت دموعهما .. سمعته يقول .. حاضر .. ساقرا .. واقرأ .. ربما .. المهم .. استريحي انت .. ولكنها قالت برجاء .. ابتي اريد اذا سمحت ان نذهب اليه الجميع شاركوا في صنع ماساتي .. حطموني ... لم يستطيعوا لي قولا ولا عونا .. سوى كلمات قاتلة باسم الرحمة والخطورة والإهتمام .. لماذا ذكروا الحقيقة ؟ الا يعرفون انهم يقتلون المريض بصراحتهم .. المريض يفقد حماسه عندما يسمع حكم الاعدام الصادر ضده .. انه يشعر الا فائدة ترجى ومن الداخل يتاكل وتتاكل قدراته ومقاومته وصموده .. كنت اعتقد انني ساصمد ولكني احس الا قدرة لي ولا رغبة في العيش ... انها قسوة .. قسوة استحلفك بالله وبالعزيزة الغالية رحمها الله وبحياتي إذا كانت لها قيمة .. ان تعرضني على هذا الطبيب !

واحس بالضيق .. ماذا سيقول كبار الاطباء من زملاء المهنة ؟ عندما يعرفون انه وهو الاخصائي الكبير بالامراض السرطانية يذهب بابنته الى طبيب ناشيء .. هذه قسوة لا حد لها يا سعاد ؟ ولكن ما باليد حيلة .. اطمئني سنذهب اليه غدا .. سنذهب إليه .. ولدهشته راى الحياة تعود إلى الوجه الباهت من جديد وتبعث نشاطاتها تلك في جسدها الشاب الذي كان ضحية الافكار والكلمات القاسية ... وسمعها تقول :

ـ نعم يا ابي سنذهب اليه غدا . لن اتاخر .. قلبي يحدثني انني سأجد عنده العلاج الشافي .

وفي تلك الليلة لم تغمض اجفانها الا لحظات . ومع نسمات الفجر الندية وصوت المؤذن يشق السكون في عذوبة وابتهال .. تفجرت ينابيع الايمان من قلبها ووجدت قلبها الغض اسيرا لعاطفة جياشة مليئة بالحب والحنان لكل شيء وجرت دموعها وهي ترى نفسها وجها لوجه مع الماساة ليس لها الا الله ... (الله اكبر) كررها المؤذن فاستقرت في اعماقها واخذ يتهدهد قلبها



السيد ابراهيم

*

وتمسح جراحها فاتجهت الى الله بقلب سليم واخذت تدعوه في تضرع وابتهال .. طلبت منه ان يساعدها وان يخرجها من ازمتها . كانت تدعو الله بكيانها كله وكانت دموعها لا تتوقف تغسل احزانها . دعت الله ان يمد لها يد الرحمة وان يجعل فيما هي مقدمة عليه الخير كل الخير .. اخرجت كل ما في اعماقها .. كانت تلك هي المرة الاولى التي تتضرع فيها الى الله ويذوب كيانها كله وهي تتجه اليه بكل قلبها .. بل هي تعترف انها المرة الاولى التي توضأت فيها واتجهت الى الله في صلوات خاشعة .. كم هي مخطئة .. انها لم تعرف متعة الايمان بالله والاستغراق في محبته .. لم تنشأ في جو ديني ووالدها نفسه هو كل املها لا تراه الا لماما في الاحوال العادية وبالتالي فرؤيته وهو بين يدي الله امر ليس بالهين ثم احست بالاطمئنان ، شعرت انها ولدت من جديد وان شحنة الايمان التي تزودت بها قادرة على مساعدتها فشعرت بالسعادة .. كانت مستبشرة وارادت ان تزف الخبر الى والدها واتجهت الى حجرته .. وتحقق ما كانت تريده .. راته بين يدي الله يصلي في خشوع ثم سمعته يتضرع وهو يدعو الله ان يمده بالقوة والصبر وان يساعد ابنته وان يجعل فيما هو مقدم عليه الخير كل الخير !

وتسللت عائدة الى حجرتها وقد بلغ منها التاثر كل مبلغ . يا له من والد حنون .. انه يتعذب من اجلها .. وانهمرت دموعها غزيرة مكتسحة ازالت كل ما كان قد ترسب في اعماقها ثم هدات والقت بجسدها المنهك فوق فراشها الوثير وما هي الا لحظات حتى سمعته وهو يوقظها في رفق بصوته الحنون .

ـ هيا يا سعاد ... ليست عادتك . لقد تأخرت كثيرا .. وهبت مسرعة .. ياه .. الشمس تملأ الغرفة .

وفي الموعد المحدد توجها الى المستشفى وعندما آخرج بطاقته واعطاها الممرض لم يكن يتوقع اهتماما غير عادي من الدكتور مجدي ولكن ادهشه ان رآه هو بنفسه وقد جاء مرحبا به وبابنته .

كانت سعاد غارقة في افكارها تقارن بين الاصل والصورة انه نفس الانسان .. الوجه الباش النحيل .. العينان اللتان تبعثان الثقة في النفس الملتاعة .. الهدوء والصوت المليء بالثقة والامل .. كان يتحدث مع والدها بالانجليزية وسرعان ما طلب منها في ادب أن تتبعه الى حجرة الكشف وعندما اغلق الباب

.. نسي كل شيء .. لم يعد في راسه سوى شيء واحد .. ذلك العدو المجهول الذي يريد افتراس حياة شابة مليئة بالحيوية المرض الخبيث المدمر الذي يريد اقتناص هذه الحياة .. هذا العدو المجهول الذي يخطط لاغتيال هذه الانسانة الرقيقة التي يتعذب من اجلها والدها الاستاذ القديم !

وانتهى من فحصه الدقيق ثم خرج وتبعته هي بعد لحظات .. كانا يتحدثان وكان حديثهما مشحونا بالاصطلاحات الغامضة ثم اتفق الاثنان على ان يقوم الدكتور مجدي باجراء العملية .. كان والدها قد اطمان تماما لقدرة الدكتور مجدي. ادهشته معلوماته الغزيرة وعلمه الواسع حقا لقد تقدمت به السن فان الطب يقطع في كل يوم مراحل طويلة في طريقه لاجتثاث الجراثيم التي تهدد الحياة البشرية . وسوف ياتي اليوم الذي يعيش فيه الانسان بلا ألم . وفي اليوم المحدد حضر الى المستشفى المزود باحدث ما وصل اليه العلم الحديث وتمت الاجراءات في سرعة .. كان كل شيء معدا سلفا .. وتم كل شيء في سهولة ويسر .. تم استئصال الورم بطريقة حديثة لم تحدث اية مضاعفات. وتمر ايام قليلة وتتماثل سعاد للشفاء .. كانت سعيدة عادت اليها ابتسامتها الرقيقة وعادت الى وجهها البشاشة اختفى الذبول وبانت معالمه الدقيقة تضج بالحيوية وقد تفتحت مغاليق قلبها للحياة .. وعندما عاد والدها الى المستشفى كان سعيدا بما يراه وداعبها قليلا .. هذا سحر والله .. انت اليوم سعاد .. سعاد الرائعة .. ما شاء الله .. آن لنا ان نعود الى المنزل استعدي ..

كان الدكتور مجدي في استقباله متواضعا اخاذا .. وادهشه ان يقوم وهو الانسان المتحفظ بالاقبال على الدكتور مجدي ومعانقته في سعادة وكانت الدموع التي لا تنقطع تبل وجهه وتتساقط وتلتصق بوجه الدكتور مجدي ... وتاثر مجدي كثيرا .. واسعده ان يستمع الاخصائي الكبير وهو يشكره بصوت قد بلغ منه التاثر كل مبلغ .. كان يقول له اشكرك .. انقذت حياتي .. ابنتي هي حياتي .. ليس لي سواها . سعاد هي حياتي .. اشكرك يا ابني .. آن لنا ان نركن الى الراحة .. يبدو ان معلوماتنا قد توقفت منذ زمن طويل .. يجب ان نترك الميدان لمن هم اكثر خبرة وقدر منا .. آن لنا ان نستريح . اعتقد ان للرقة التي تتعامل بها مع مرضاك فضل كبير .. كنت اختلف عنك وكنت قاسيا وانا اصدر قراراتي .. وابلغ تعليماتي وتوجيهاتي .. فليسامحني الله . وعندما اهلت سعاد بابتسامتها الرائعة .. نسي الاثنان حديثهما واقبلا عليها .. كانت الفتاة رائعة آية من الجمال الاخاذ يجذبك الى وجهها الصبوح طهارة ونضارة مشوبة بالحمرة تضفي على وجهها فتنة آسرة .. وكانت معنوياتها المرتفعة تنعكس على كل تصرفاتها .. ولم يكن في قلبها سوى الانسان الرقيق الذي انقذ حياتها .. كان قلبها يخفق بشدة .. فهي التي احبت الصورة .. احبت فيها الوداعة والرقة .. احبته من كل قلبها حتى قبل ان تراه .. والان هي اسيرة لعاطفتها الجياشة .. وجدت في هذا الانسان صورة مغايرة تماما لوالدها .. ملامحه رقيقة معاملته مدهشة .. اشياء كثيرة شعرت بها وتشعر بها الان وعندما وضعت يدها الرقيقة في يده مودعة .. شعرت بما في اعماق صاحبها كانت يده دافئة حانية وديعة وهي تعانق في صمت يدها البضة .. وشعرت سعاد انها قد خلقت من جديد .. قلب المراة لا يكذب .. وشعرت بارتباك شديد واحس هو بما اصابها فاطلق يدها ثم اطرق في خجل ..

واحس الاخصائي ان عليه واجبا نحو مجدي وان هذا الطبيب الشاب لم يعد غريبا عنه .. احبه هو الاخر .. وقال له بصوت ابوي :

- اتمنى ان اراك دائما يا مجدي .. ارجو ان تحس باننا اسرتك .. اعتبرني مثل والدك .. سعاد هي الاخرى شقيقة لك .. هل تتفضل بزيارتنا قريبا ؟ ام ان مشاغلك تشغلك ؟

واحمر وجه مجدي : مشاغلي.. اية مشاغل .. سوف احضر .. ربما اسرع مما تتصور .. ان شعورنا واحد ..

واطرقت سعاد في حياء .. كان قلبها يخفق بشدة .. كانت سعيدة واحست بسعادته وبحيرة والدها المجرب ؟

وفي اليوم المحدد للزيارة اهتمت سعاد بابراز اناقة (الفيلا) .. حتى الحديقة الغناء عملت على تجميلها واعادت الحياة اليها حتى يخال الناظر الى ورودها واشجارها واقفاص طيورها ان الكل في فرح وان السعادة تخيم على الجميع حتى الطيور الملونة كانت تغرد في سعادة اسرة . مرحبة بالضيف العزيز القادم . وكانت سهرة رائعة ممتعة شعرت خلالها سعاد ان الحياة جميلة وان الانسان مخلوق رائع وان الشقاء لم يخلق له ابدا . وحدثه مجدي عن طفولته وعن الشقاء الذي شعر به عندما مرضت والدته رحمها الله ...

وهنا تفتحت حواسها كلها انه مثلها بلا ام وهو يتحدث عنها بحب كبير .. كان يقول بصوت مؤثر .. انني اكن لامي كل حب واعزاز .. لقد تعذبت كثيرا .. استهلكت حياتها في تربيتنا واصابها المرض بسببنا ولقد تقرر مصيري ومستقبلي يوم أن عرفت بمرضها وان الاخصائي الكبير والوحيد في بلدنا في ذلك الوقت قد شخص حالتها بدقة

واخبرها بقسوة بمصابها . . اخبرها ان مرضها خطير وان الواجب يدعوها لاجراء عملية جراحية فورا . وكانت كلماته حكما بالاعدام لم تتحملها . . ذبلت فجاة . . اكلها المرض والغريب انها وبعد ان انهارت تماما . . اتضح ان الاما نفسية وانما حسبه الإخصائي الكبير ورما سرطانيا ليس سوى ورم عادي ولكن ، قضاء الله كان قد نفذ فقد ماتت وتركتنا وديعة في يد الاقارب ولولا مالنا الكثير لاصابنا هم ثقيل . . منذ ذلك الوقت ومضيري اعرفه . . شغلني المرض عن كل شيء . . كنت ادرس حتى قبل ان ادخل كلية الطب . . درست اللغات الطبية واطلعت على دوائر المعارف الطبية . . قرات المجلات الطبية والابحاث العلمية . . شغلني المرض والكفاح ضده وكان دافعا للتفوق في الدراسة حتى انني لم أشعر بانتهائي من الدراسة الرسمية الا يوم أن سلموني شهادة (البكالوريوس) منذ ذلك اليوم البعيد القريب اصبحت متعبدا في رحاب الانانية اسعى لتخفيف الامها . . لانني لااستطيع نسيان آلام امي .

وارتاع الاخصائي الكبير . . القدر يعد له مفاجاة تزلزله . . لقد اودى هو بحياة هذا الطبيب الشاب بينما انقذ هو ابنته . . اي مفارقة ساخرة . . واي الم ابلغ من هذا . . قتل هو آلام الشابة بقسوته وغروره وانقذ هذا الانسان ابنته برقته وحنانه . . لقد كان قاسيا . . كان بحطم الاصحاء في قسوة لا حد لها . لم يكن في البلاد كلها اخصائي سواه . . وهذا الانسان يعرف كل شيء . . واحس انه ضئيل تافه امام هذا الشاب العملاق . . وشعرت سعاد بالام والدها . . كانت هي الاخرى تتعذب ولكن مجدي الانسان سرعان ما تصرف حسب طبيعته ووفق طريقته جلجلت ضحكاته وهو يقول : آن لنا ان نترك سيرة حياتي يبدو انها اخرجتنا من الجو اللطيف الذي كنا ننعم به . . سامحاني . . وليغفر الله لي . . نحن جميعا لاحيلة لنا امام القدر . .

وارتاع الاخصائي الكبير . . انه يقتله بتجاهله ونسيانه . . انه انسان حتى امام خصم جبار . . . وكاد يركع تحت قدميه طالبا الغفران . . . ولكن مجدي . . في دنيا ثانية كان قد قرر امرا وسمعه الاخصائي الكبير وهو يساله في ادب : استاذي اتشرفني بقبولي زوجا للانسة سعاد؟ . . ولم يسمع ردا . . كان الاخصائي مذهولا وكانت سعاد غارقة في خجلها . . السعادة ترتفع بها الى السماء . . نغمات العصافير الملونة اصبحت اوركسترا ضخمة . . الورود البيضاء . . ليست سوى فساتين الزفاف ترتديها الفراشات العذراء . . الموسيقى . . الحفل . . الزفاف وكرر مجدي السؤال . . واخيرا عاد الاثنان الى جو الجلسة العائلية .

وجاء صوت الاخصائي صافيا رائقا وهو يقول في ود :

ـ هذا شرف كبير لي ولابنتي . التفت مجدي نحو سعاد وسالها بابتسامته الخلابة وراي الانسة سعاد ؟

وارتج عليها القول . . وكان سكوتها ابلغ من اي كلام . . وشعر مجدي بانه قد حصل على ما كان يرجوه ويتمناه . . لقد احب الانسانة الوديعة الرقيقة . . عوضه الله خيرا . . كان يريد الانسانة التي تفهمه التي تكن له عاطفة صادقة . . التي تذكره دائما بالانسانة الغالية التي تفانت في حب زوجها واولادها . . الام الرؤوم . .

واخرجها من افكاره زغرودة رائعة اطلقتها المربية التي اذهلها الخبر . . . كانت مفاجاة رائعة . . . وكانت سعاد في قمة افراحها تكاد تطير في خفة الفراشة من مكان الى مكان . . كانت السعادة تطل من بين عينيها وتنطق بها كل جارحة من جوارحها .

وعندما غادر الطبيب الشاب المنزل كان قد ترك قلبه وديعة بين يديها وكانت هي قد وهبته قلبها وحياتها .

القاهرة — السيد ابراهيم

ساعة الوداع

دقت الساعة دقات الوداع — فارتمى قلبي في حضن الضياع
يرسم الانغام رسما قاتما — في جفون الارض ، في كل البقاع
هذه الدنيا ـ حبيبي ـ حجبت — عن عيوني كل اطياف شعاع
ورمت اجنحتي تحت الدجى — يا لها من شبح جهم الطباع
شاءت الاقدار ان يبقى هنا — زورق في البحر من غير شراع
تلعب الامواج احيانا به — ليظل العمر يحيى في صراع
يا حبيبي . . لم تكن في حبنا — مرة ننشد الحان الخداع
لم تكن نعرف يا سوسنتي — اي شيء عن ازاهير النزاع
الهوى كنا نراه كوكبا — دائم البسم كاحلام الشعاع
هكذا حكمة ايام الهوى — ابتسام . . فلقاء . . فوداع

وجدة ـ المغرب — محمد علي الرباوي